غادة السمّان

عيناك قدري



منشورات غادة السمان

المشرف الفني : نبيل البقيلي
تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد
الغلاف الاول : مقطع من لوحة للفنان جورج ف. واتس اسمها «قاطنة الحميمية المفرطة» / ١٨٨٦

غادة السمان

عيناك قدري

منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى: شباط (فبراير) ١٩٦٢
الطبعة الثانية: تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٧٣
الطبعة الثالثة: نيسان (ابريل) ١٩٧٥
الطبعة الرابعة: تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٧٧
الطبعة الخامسة: كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩
الطبعة السادسة: كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠
الطبعة السابعة: كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١
الطبعة الثامنة: أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥
الطبعة التاسعة. آذار (مارس) ١٩٨٩
الطبعة العاشرة: حزيران (يونيو) ١٩٩٣

اهداء

ابي ...

بصمت وتواضع :

اليك من نزف المعركة ،

بعد ما علّمتني كيف أحارب قَدَري

غادة

عيناك قدري

(*) تُرجمت هذه القصة إلى الألمانية والرومانية والانكليزية

نوافذ البناء الواسعة المضيئة تنظر إلى الشارع المزدحم كأنها عيون كبيرة بلهاء .. وهي وراء إحدى النوافذ رصينة جامدة كعادتها، انكبت على بعض الأوراق حتى كادت تلصق بها وجهها ، كأنها تهرب إلى أوراقها من عالمها .. ولماذا الهرب ؟ ..

لا شيء في حياتي سوى عملي .. أنا سعيدة .. لا شيء ينقصني .. أملك حريتي وقدري كأي رجل في هذه المكاتب .. أنا حرة سعيدة ..

سعيدة ! .. لماذا تظل تكرر لنفسها انها سعيدة ؟

عماد قال لها ذات مرة : « عندما نكون سعداء فعلاً لا يخطر لنا أن نتساءل إن كنا كذلك أم لا ؛ السعادة تصبح جزءاً منا . انك لا تتساءلين إذا كانت يدك في مكانها أم لا .. نحن نتحسس الأشياء عندما نشك بوجودها .. »

لماذا تستعيد كلماته بهذا الحنين ؟ انها لا تحبه ..

لا .. لم تحبه قط .. كانت تتسلى به كما يداعب أبوها جارتهم الحسناء كلما التقاها على الدرج .. وكما يتلهى أي رجل في المدينة بالفتاة التي تروق لعينيه .. وهي « رجل الدار » .. لقد نجحت في أن تكون « رجل الدار » .. نجحت في تحقيق قضيتها .. انتصرت .. **ولكن قضيتك كانت فاشلة منذ البداية .. كنت تحاربين الشمس .. تريدين أن تشرق من الغرب .. أن تخرس الأمواج وأن يضل الليل طريقه إلى دروب المدينة ..**

.. لقد انتصرت .. انها فاشلة كبيرة .. أفكارها تمزقها .. تحاول الانكباب

على المصنف أمامَها .. لا تستطيع .. انها تتعذب .. تكره أن تضعف حتى أمام نفسها .. انها تتعذب .. تعيش مرارة نصر عجيب .. لماذا لم يقتلها أبوها يوم نبأوه بأن بنتاً خامسة ولدت له ؟ ..

بنت !

جاءت بوقاحة ، وبالرغم من تهديداته لأمها .. بالرغم من تمائمها وأدعيتها وذعرها ..

لماذا أبعدوه عن فراشها عندما ثار وأرغى وأزبد وهجم عليها بسكينه يريد ارجاع الطفلة إلى بطنها بالقوة ؟ كان يريد صبياً بعد بناته الأربع .. وريث أمجاد دكانه وحلقته على رصيف الشارع .. ووريث نرجيلته .. لا يريد لجمرها أن يخبو بعد وفاته .. لماذا لم يدَعوه يقتلها ؟ ..

يريد ولداً يسميه طلعت .. اسماها طلعت !! .. يريد صبياً لا يضطر لسجنه في الدار بعد أن يفوز بالشهادة الابتدائية .. لا يخاف عليه من السير في الشارع وحده ! ..

وهي قد وعت قضيتها منذ البداية .. منذ اكتشفت ان اسمها طلعت .. منذ البداية وهي تكافح ضد الشمس .. تتعلق بأذيالها وتشدها كي تشرق من الغرب ..

أصرّت على اتمام دراستها بعناد كان يثير في نفس أبيها سروراً خفياً يفشل في إخفائه .. لم يعد يخاف عليها من السير في الشارع وحدها .. إنها لا تتهادى بدلال .. لا تعنى بمظهرها .. لا تثير اهتمام أحد .. تكره الرجال والشباب . لا .. لا تكرههم .. الكراهية اعتراف بوجود الشيء المكروه وهي لا تحس بوجودهم على الاطلاق .. لا تريد أن تحس بوجودهم .. وإلا فلماذا ترفض الدخول لتحية أية خاطبة شاء لها حظها العاثر أن تدق بابهم ؟ ..

أحزان مبهمة تنمو في هدوء صمتها وفي غمرة احساسها القاتم نحو أبيها ..

ترى فيه عالمها .. مجتمعها .. تتحدّاه .. تكرهه كراهية شفافة لا حقد فيها .. تشفق عليه .. تريد أن تكون رجلاً كي ترضيه .. كي تذله .. تدفع أي ثمن لنصرتها .. تريد أن يشعر بأنها تساويه .. تريد أن يحبها ، لأنه يحترمها لا لأنه يشفق عليها كما يشفق على اخوتها وعلى أمها .. كان من الممكن أن تكون كأمها الذليلة .. انها تثأر منها ولها .. تنتقم من ضعفها وتنتقم لضعفها في كل صف اجتازته .. في كل شهادة فازت بها ..

يوم حازت شهادتها الجامعية رمتها بوجه أبيها كأنها تصفعه .. وفي المساء رمقته بنظرة تحدّ قاسية عندما فاجأته يغازل الجارة على الدرج .. لم تتجاهلها بكبرياء جوفاء كعادتها .. انها سعيدة باحترامه لها .. سعيدة بإذلالها الخفي له .. سعيدة .. يجب أن تكون كذلك ..

بعد شهر واحد يتجمع لديها مبلغ كافٍ لشراء سيارة .. سيارة صغيرة لها وحدها .. سيسهل عليها التنقل بين أماكن عملها الكثيرة .. الدائرة في الصباح .. مكتب الشركة بعد الظهر .. الدروس الخاصة ليلاً حتى الحادية عشرة حين تعود إلى الدار منهكة ثائرة تصيح في وجه أمها لأن طعامها لم يجهز ثم تنتقده مهما كان نوعه ، كما يفعل أي شاب في الحي .. ألا تجلس مع أبيها كل أمسية تناقشه في السياسة والمشاريع والدخل القومي ؟ .. ألا تدخن نرجيلته بينما هو يضحك فرحاً بها وفرحاً بظلال الذعر والعجز في عيني أمها ؟

تشعر فجأة بأن جمرات النرجيلة تحرق خدها .. وان دخانها يخنقها .. وانها تود لو تدفن خيبتها في صدر أمها وتحدثها وهي ترتعد عن عماد .. كم تتمنى أن تعيش معه .. يتشاجران ويتعاتبان ويلاحقها بين جدرانه الصفر وهي تعاتبه كعصفور فاجأه الربيع .. ويجلسان أمام الموقد في ليالي الشتاء .. يعد لها القهوة بيده وترشفها من فنجانه وينصتان لأنامل المطر التي تدق نافذتها .. ولا يفتحان النافذة حتى الصباح التالي ! .. ما هـــذه الخواطر

السخيفة ؟ انها لا تحب عماد.. كل ما في الأمر ان المصنف بين يديها قد انتهى وان عليها أن تجلب سواه وتغرق في عملها .. تنظر إلى ساعة يدها .. لم يحن موعدها مع سلوى بعد .. تستطيع أن ترتب مصنفات اجتماع الغد .. تنهض نحو الخزانة الحديدية في ركن الغرفة.. تفتحها ولا تسمع أنينها البارد. تخرج مصنفاً .. تستدير لترجع إلى مكانها .. تقع نظراتها على شبحها المتهالك على الزجاج أمامها .. لا تدري لماذا تتأمل نفسها بفضول .. مظهرها عادي .. بذلت كل جهد كي لا تثير في الناظر إليها أي انفعال .. إنها جميلة .. تعرف انها جميلة لولا نظارتها السوداء التي تخفي عينين مدهشتي البريق .. جوع ونهم ، وحنين وحرمان تختلط فيها مع ظلال حمر لكاهنة شهوانية نذرت عروساً لإله من رخام .. جميلة لو انسدل الشعر المشدود بقسوة إلى الخلف ، ولو خلعت رداءها الواسع السميك بياقته التي تشبه ربطة عنق رجل ، ولو برزت بعض ملامح خصرها النحيل كطوق ياسمين .

عماد وحده كشف سرها يوم رآها للمرة الأولى في الشتاء الماضي عندما جاءت تلقي على أخته دروساً خاصة في اللغة الانكليزية .

قالت أخته : « أستاذة طلعت .. أقدم لك أخي عماد » .. نظر إليها .. لم تتجاوزها عيناه المتفرستان كما يفعل الرجال جميعاً .. ظلتا تتأملانها ببطء .. عينان عميقتان خضراوان تجوسان وجهها كعاصفة عطر مثيرة.. وأحست أن نظراتها تنتزع عن وجهها النظارة السوداء .. ترمي بها قرب قدمي أخته .. تحل ربطة شعرها بحنان وتدغدغ آلام الخصل المشدودة .. نظراته تعريها من ألقابها وشهاداتها وردائها .. تزحف برعونة لذيذة فوق ذراعيها .. تبعث فيها دفء شمس لم تلمسها .. تنحطّ بثقلها على الصدر فيزداد شموخاً ويرتعش في حناياه شيء ما ويتخبط .. تعصر الخصر فيترنح بلذة عناقيد أثقلها الطيب .. رحلة نظراته في مجاهل عوالمها أرهقتها ، كشفتها .. جعلتها تشعر انها مضحكة وسخيفة .. وانها ليست الأستاذة طلعت .. وانها ليست

سوى ممثلة اكتشفت فجأة ان ثيابها مضحكة وان دورها مضحك وانها بحاجة إلى البكاء في صدر ما .. وأحبّت عينيه يومئذ .. ولم ينقذها من ارتباكها إلا ترحيبه الذي خيل إليها انه يفيض سخرية :

— سمعت عنك كثيراً يا أستاذة طلعت .. أهلاً وسهلاً .. ابتسامته بعثت في أطرافها دفئاً مفاجئاً مسعوراً .. ابتسامة رجل لامرأة .. ما أروع وما أسوأ أن تكون امرأة ! ..

ولكنها جلست برصانتها المعروفة .. كررت الدرس لأخته ببرودها المعروف .. صافحته ببلاهة قبل أن تمضي .. ولما غادرت الدار أحست أن عينيه تطلان من غيمة معلقة قرب أحد أعمدة الكهرباء .. تضحكان منها بسخرية .. تتحديانها . لا تدري لماذا خلعت نظارتها بعصبية وبللت شفتيها الجافتين بينما تدلت السفلى متعبة مثقلة . وليلتها وقفت طويلاً أمام مرآتها قبل أن تنام تحصي كنوزها برضى البخيل وحرص البخيل وخوف البخيل حينما يشعر بأنه لن يستطيع إلا أن يدفع وأن يمنح ..

وقد منحت ! .. منحت أكثر مما تستطيع أن تمنح أية امرأة .. منحت الكثير لعينيه ..

لماذا تستعيد هذه الحكاية السخيفة ؟ المصنف بحاجة إلى ترتيب .. لا .. يجب أن ترتكز أفكارها .. هذا أسلوب المراهقات في الخيالات .. يجب أن لا تذكره .. تريد أن تذكره .. تريد أن تستعيد تلك الأيام لحظة لحظة .. تتلمظ بالذكرى .. **لماذا أهرب من التفكير به وكأنه شيء يخيفني ؟ .. إنه لم يعن شيئاً بالنسبة إليّ .. انها مغامرة كأية مغامرة لأي شاب .. جميع الشباب يستعيدون ذكرى مغامراتهم ..** هدأت نفسها لهذا التعليل وخيل إليها أن عينيه تزدادان خضرة وغموضاً ..

لقد منحت ! .. أجل .. منحت الكثير ..

يوم مرضت أخته أصرّ عليها أن تبقى .. جلسا معاً يتحدثان .. أعد لها

القهوة بيديه .. القهوة رائعة عندما تشربها معه .. تختلف عن طعم القهوة في هذا المكتب .. الزمان يجمد أمام نظراته .. حديثه الذكي يخاطب أنوثتها .. يتجاهل نظارتها السوداء .. يثير ضعفها وحنينها إلى ما لا تدري .. لم يكن في عباراته جملة واحدة للأستاذة طلعت .. انه ينكرها ويستنكرها .. يتجاهلها .. وظلت أخته كريمة مريضة .. وظلت تزورها لتطمئن إليها أو لتطمئن إلى انها ما زالت مريضة .. لا تدري .. كانت تريد أن تكون معه .. تشرب قهوته .. يحدثها .. يدفئها .. نظراته تجردها من الاستاذة طلعت .. تهدأ تستريح .. تتعب .. لا .. لم تكن تذهب من أجله وإنما كانت تطمئن إلى أخته ..

ويخيل إليها ان عينيه تضحكان .. تشدانها .. لترى الأشياء من جديد خلالها .. كاذبة .. لماذا ظللت تزورينه في الصيف بينما أخته وأهله جميعاً في المصيف خارج المدينة ..

كنت أتسلى كأي شاب .. كأبي .. كزميلي في العمل ..

تدفن رأسها بين يديها .. تعرف انها تخدع نفسها .. لم تكن تتسلى . انها قضية حقيقية كانت أكبر من أن تواجهها .. هربت منها .. هربت من شفتيه النهمتين وهما تجوسان وجهها في ليالي الصيف ..

كان حنانها يمزق أقنعة برودها .. فتنهد على صدره .. تخفي رأسها بين رقبته وكتفه . تدفن دمعة لا تريد له أن يراها .. .. وهو يفهمها ويتجاهلها ويحبها .. وهو يقول انه يريد أن ينقذها من نفسها .. وترفع رأسها وهي تضحك..تعرف ان ضحكتها لم تخدعه..نظارتها لم تخدعه..لا تستطيع أن تخدعه.

وفي الخريف منذ شهرين .. وقبل عودة أهله من المصيف عرض عليها أن تشاركه حياته ! جمدت ، ضحكت ، ذعرت لكلماته . ثارت « الاستاذة طلعت » . كادت تهوي . غلبها حنين مبهم إلى دار تفور في إحدى زواياها أبخرة طعام أعدته بيديها ، ووقفت خائفة تنتظر أن يتذوقه ويثني عليه كأنما

تعلق مصير عمرها كله برضاه وإعجابه .. كادت تقول نعم . تستحيل إلى انثى . الانثى ماتت يوم اسموها طلعت . ماتت . تماسكت فجأة وأعادت نظارتها السوداء إلى عينيها كأنها سدّ تحتمي به منه .. تعلقت بثوبها ذي الياقة التي تشبه ربطة عنق رجل والذي انطلق هارباً إلى دارها .. لم تبك .. لم تقل شيئاً .. جلست مساءً كعادتها تسمر مع أبيها وانكبت على نرجيلته .. أمها تروح وتجيء بالجمر .. والدها يقهقه ضاحكاً خاضعاً .. وهي كالنمرة ، كآله اسطوري تنفث الدخان من فمها ومنخريها .. ولكنها لما أوت إلى غرفتها ، خلعت ثيابها في الظلام وانهارت في فراشها .. كانت تخاف حديث المرآة ! .

انتصرت .. لكن صوته ظل يتململ في عتمة ستائرها : « سأنتظرك كل أمسية في داري .. ستعودين يوم ترين الأشياء بعيني .. وتجدين نفسك .. ستعودين » ..

ولكنها لم تعد .. انتصرت ولم تعد .. ترى الأشياء بعينيه بعض الأحيان ، ولكنها تتمرد ولا تعود : **لقد انتصرت في أن تهزمي نفسك .. قضيتك منذ البداية كانت فاشلة .. نصرك فيها أعظم فشل .. أنت فاشلة كبيرة أيتها المرأة الرجل !..**

تقرأ بعض الأرقام في الملف أمامها بصوت مرتفع . صوتها لا يحميها من أفكارها .

زميلها في الغرفة يتململ . تعود إلى صمتها .. يجب أن تسرع في اعداد المصنف . غداً اجتماع الشركة ، لشدّما أضحت تخشاه .. كلما وقفت لتتكلم بصرامتها المعروفة ، ينصت لها الجميع بإجلال وإكبار .. وفجأة تطل عيناه من مكان ما .. تهرب نظراتها إلى الملفات .. تنزلق عيناه على المنضدة الكبيرة وتقفزان عابثتين بين المصنفات والأرقام المعقدة ترثيان لها .. تغمزان لارهاقها .. تقهقهان ساخرتين .. تذكرانها بالقهوة الدافئة ودبيب أنامل

المطر على نافذتها .. تثير ان حنينها إلى مقهى يستند إلى بحر له شمس دامية الغروب .. وترقص الأرقام في الصفحات كديدان مرعبة كما ترقص الآن .. كما ترقص الآن ..

تتململ في مقعدها وتنفض عنها الخواطر . تنظر إلى ساعتها مستنجدة . انها تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق .. بعد نصف ساعة يحين موعدها مع سلوى .. ستخرج كي لا تتأخر . انها تتحرق شوقاً لرؤيتها ، لم ترها منذ أعوام .. منذ أن جاءت إلى المدرسة ضاحكة ونفضت عن يديها غبار الطباشير للمرة الأخيرة ، فالتمع في أحد أصابعها خاتم ذهبي غاص قلب طلعت لمرآه .. واختفت .. وقالوا انها تزوجت .. وقرأت بعد أعوام انها أنجبت ولداً . جميل من سلوى أن تذكرها وتهتف لها بعد كل هذه الأيام طالبة مساعدتها في اللغة الانكليزية . قالت انها سترحل مع زوجها إلى انكلترة بعد أشهر ولا تريد أن تبدو بلهاء هناك .. وضربت لها موعداً ظلت منذ أيام تنتظر حلوله بفارغ الصبر . تريد أن ترى سلوى وتتشفى برؤيتها . تتمنى أن تشفق عليها ، تتخيلها سمينة مشققة اليدين ، أنفها محمر بعد شجار حار مع زوجها ، تنظف احدى النوافذ بينما ريح الشتاء تصفر في غرف الدار وتلسع طفلها الذي يبكي .. واثقة من انها هي سترى سلوى هكذا ..

تخرج من المكتب دون أن تودع زميلها في الغرفة . لا يرفع رأسه إليها : لقد اعتاد ذلك منها ، عامل المصعد يفتح لها الباب مرحباً . لا تنتبه لوجوده ، يتوقف المصعد . يفتح بابه . تخرج . لا تنسى التأكد من عنوان سلوى قبل أن تضيع في زحمة الشارع . تحاول أن تتسلى عن خواطرها بمراقبة العابرين . الوجوه كلها متشابهة . كلها تحمل قلقها وخيبتها وتمضي إلى مكان ما .. تتغير الملامح والألوان .. يشدها جميعاً خيط مبهم من الحسرة والخيبة .. كأنما لا ترى إلا نفسها في كل شيء .. وعينا عماد ترصدانها ، تلاحقانها .. تثير ان حنينها إلى رائحته وشبابه .. شخصيته المثقفة وطموحه .. تتمنى أن

تفني عند جذوره ليمتصّها قطرة قطرة .. لن ترى الشمس إلا خلال وجوده .. ترتعد .. انه برد الشتاء بلا ريب .. يدبّ في شريط المخازن الطويل ويتغلغل في ذرات بردى المتعبة حيث تمر ، ويتكدس في أعماقها ثم يطفو عند أناملها بزرقته المريضة ..

تسرع في مشيتها . تخلّف بردى متجهة نحو محطة الحجاز لتمتطي إحدى السيارات العامة .. ساعة الحجاز تطل عليها كامرأة مصلوبة في صدر الشارع كأنها سيزيف المدينة .. عقرباها يكادان أن يشيرا إلى الثامنة .. نظراتها قد تسمرت بها بينما هي تسير نحوها كدمية متحركة عُبّثت مسنناتها حديثاً .. يخيل إليها انها تسمع دقاتها .. أبداً تدور مثلها .. الساعة السابعة تخرج إلى العمل .. الثالثة ظهراً تأكل .. الخامسة .. تخرج .. لا جديد .. هي لا تملك إلا أن تعمل .. الساعة لا تملك إلا أن تدور .. تدق .. دقة واحدة .. دقتين .. ثلاثاً .. أربعاً .. ثمان .. لا تبدع شيئاً ..

يكاد العقربان يشيران إلى الثامنة تماماً .. لو تحدث معجزة مرة واحدة .. لو تعول الساعة برداً .. لو تهدأ لحظة وتستسلم عقاربها لاكداس صقيع الشتاء .. لو تنفجر .. تدق عشرين دقة .. ألف دقة .. لو تتخلى عن آليتها الذليلة الخنوع وتصرخ : « أنا متعبة .. سئمت عقاربي صريرها .. لن أدق الليلة ثماني دقات .. افعلوا ما تشاؤون » ويتجمع حولها رجل يخون زوجته وامرأة تشتم فتاة بادلت حبيبها السابق حباً بحب ، ورجال غاضبون لأن زوجاتهم لم يلدن ذكوراً ، وعوانس وحرّاس يسرقون عند مطلع الفجر بعد أن تنتهي مهمتهم .. يتجمعون جميعاً ويرجمون الساعة بينما ينهار زجاجها تحت الأقدام بلذة إله اختار مصيره ! ..

لا مفر .. درب خلاصها لم يولد .. الساعة تدق .. تمزق أعصابها .. تعد الدقات بحرص وحرقة عجيبة : دقة .. اثنتين .. عينا عماد تضحكان بسخرية .. الأستاذة طلعت ! السيدة طلعت .. خمساً .. ستاً .. دخان النرجيلة يتفجر في

صدرها .. سبعاً .. أبواق السيارات تقهقه ساخرة .. الكهل الذي عبر منذ لحظات يبصق باشمئزاز .. ثماني .. خرست الساعة .. عادت العقارب إلى دورتها اللامبالية .. صمت أزرق مريض يخيم على كل شيء .. تسرع في سيرها إلى دار سلوى .. ستنسى .. ستنغمس في عملها .. لم تعد تفكر في شيء .. لم تعد تشعر إلا بوخزات البرد الذي يصفع وجهها بينما السيارة الكبيرة تسبح في أنوار المدينة الباهتة .. تصل . تهبط . تسير بضع خطوات . يطاردها متسول بعناد مزعج . ليس بين نقودها قطعة صغيرة له . تقول له ذلك . تقسم له . يخيل إليها ان صوتها ضئيل كوجه طفل مريض .. يظل المتسول على إلحاحه كأنه يتعمد إحراجها . تشعر بحاجة إلى البكاء .. يمر بها شاب .. يصيح بالمتسول أن يدعها . يذعن المتسول بسرعة ويختفي مع صدى صوت الشاب عند المنعطف . تحس بحاجة مجنونة إلى أن تركض وراء ذلك الرجل المجهول وتسير بجانبه . يحميها . يدفئها بصوته القوي الخشن .. مخلوق رائع هو ذلك الرجل ! ..

تقف أمام دار سلوى وهي ترتعد برداً . تتحقق من اسم زوجها على الباب قبل أن تقرع الجرس : « محمود سالم » . لم تخطىء الدار . تنسل إلى أذنيها ألحان خافتة حنون . ليست هذه بالبداية التي توقعتها . كانت تنتظر عويل طفل . شجار زوجين ..

تضيق أنفاسها . تهوي بيدها على الجرس بانتقام أحمق لم تستقم ردود فعله بعد .. تفتح لها سلوى بعد فترة صمت طويلة . تضيء النور أمام الباب . تهوي نظراتها عليها وكأنما في وجهها جواب عن كل أسئلتها .. وتراها ويمزقها المشهد ! ..

جميلة نضرة .. يترقرق ندى النشاط في ملامحها المتوردة . مسامهاتصرخ بأنها سعيدة وحارة .. تنكمش في ركن الباب .. البرد يفور في عروقها .. سلوى ترحب بها .. تمد يدها لتصافحها .. تهب غيمة دفء عجيبة على

وجهها .. وتضرب خديها بعد أن تنزلق على خطوط جسم سلوى البديع الذي بدا مرسوماً بالنور المتوهج وراءها داخل الغرف . تصافحها بيدها المرتعشة ، تلحظ انها أضحت امرأة مذهلة النضج والاكتمال ، تشدها سلوى من ذهولها إلى الداخل .. إلى حيث تغمرها غيمة الدفء .. دفء عجيب الرائحة يفوح من ثنايا الدار . يختلف كثيراً عن دفء المكتب والشركة والمؤتمرات .. دفء يذكرها بموقد عماد ..

وتجلس بعد أن تصافح زوجها وتتبادل معه كلمات المجاملة شبه منوّمة .. غيمة الدفء تسيطر على حواسها .. تغالبها وتكاد تغلبها .. فيها الكثير من رائحة ليالي غرفة نوم وردية معطرة .. وفيها من عبير حمام فستقي الرخام ترن بين جدرانه ورذاذه ضحكات نشوى .. وفيها من أبخرة حساء شفاف تبدو خلاله رسوم صحن أنيق .. وفيها من زقزقة طفل يزحف مبتسماً وتراه يتمسح بقدمي سلوى .. غيمة الدفء تمزقها ، نظارتها تلسعها .. الياقة التي تشبه ربطة عنق رجل تضيق حول عنقها تضيق . تكاد تلهث . ترتعد . تسعل . سلوى تعانقها وتجلس بجانبها . ما أحلى رائحة العطر المنبعث من شعرها . ما أجمل عقدها الماسي . بريقه المضيء ذو الألوان المتعددة سكن من قوس قزح تغوص في صدرها .. يا لنعومة ثوبها . يا لجلدها الذي صبغته لمسات أنامل رجل وردياً شفافاً كفجر ..

جلست تحدثها وقد ازدادت انطواءً ، ستصمد ، ستتماسك . كم تبدو جميلة لو ارتدت مثل ثوب سلوى . « **دروس اللغة الانكليزية ضرورية فعلاً ، دعينا نبدأ منذ الآن** » عطرها رائع ، إذا التقت بعماد ستضمخ له جيدها به . «**احضرت لك كتاباً سهلاً ونافعاً**» . ما أجمل ساقيها في الحذاء ذي الكعب المرتفع . طفلها جميل تتمنى أن تضمه وتقبله .«**ما بالك يا سلوى مرتبكة..دعينا نبدأ**». .لماذا يقترب زوجها ويقف وراءها كأنه يحتضنها؟ لماذا يعذبانها ؟محمود يتكلم . يبدو انه يقول شيئاً.. « **عفواً،ماذا كنت تقول؟**» ..

ــ سلوى خجلة منك .. لقد نسيت ان الليلة عيد زواجنا ، لكنني لم أنسَ . اننا نعتذر منك ولكننا ستقضي سهرتنا في « شموع » . لماذا لا تسهرين معنا ؟ أرجو أن تقبلي ..

ــ شكراً لكما .. انني متعبة جداً . لا .. لن أشرب القهوة . يجب أن أذهب » .. تودعهما بشيء من الخشونة ، تنطلق هاربة من الدار العجيبة .. لا أحد يريدها .. طفلها الرائع ما زال يلوّح لها بيديه .. تخاف منه ، تشعر بالعجز أمامه .. إنها ساعة بلهاء .. لا تبدع شيئاً .. مجرد ذرة تافهة على هامش الحياة .. ساعة مصلوبة .. الزمان موجود سواء تمردت عقاربها أو دارت .. وهي تدور وتدور وعبثاً تدور .. غيمة الدفء انسكبت وراءها .. تلاحقها .. تدفع بها في الدرب إلى دار عماد .. لا تستطيع أن تقاومها .. جزء من غرائزها .. تحملها في ثنايا جسدها .. في نبضات قلبها المرتعش .. تطرد من صدرها دخان النرجيلة .. لماذا لا تنطفىء جمراتها ؟ .. الشمس لن تطلع . إلا من الشرق .. من يبارزها ؟ .. الليل يتحدى الدروب والابدية .. وهي تعرف الطريق إلى صدر عماد .. إلى دفء عماد وجدرانه الصفر المهجورة ؛ شيء ما ينفجر في رأسها .. عيناه تطلان من كل شيء .. من الجدران حولها .. من وجوه العابرين . من أصابع يدها التي تحاول أن تمسح بها النار عن جبينها . من معطفها حول رقبتها .. عيناه ، حارتان عاتبتان ممزقتان .. عيناه ، بكل ما فيهما من حنان وثقة وأحلام .. يمر رجل ويقول شيئاً ما . لا تسمعه . عيناه تطلان من كل شيء مجنونتين قاسيتين . ترصدانها كقدر . لا تستطيع أن تهرب من عتابهما اليائس .. « **يا عماد .. قل لي ماذا أفعل .. انتظرني** » متعبة .. تكاد تهوي .. رائحته تفوح من المطر ، من الاضواء ، من أحجار الشارع . ألف الف تحبه وتخشاه .. ألف ألف تحنّ إلى شفتيه ، تطوفان بمجاهل عوالم يخفيها ثوب ومعطف .. « **يا عيناك .. يا آفاق الرعب .. إلى أين أهرب ؟** » لماذا تهرب وهي ترسمها في كل منعطف ؟

يا ألف حنينها إلى جدرانه الصفر العارية : تهرب منها لترسم في كل زقاق داراً له تحن إليها ..

« **عيناك قدَري لا أستطيع أن أهرب منها وأنا أرسمها في كل مكان وأرى الأشياء خلالها** » . بذهول تردد : « **عيناك قدري** » .. الفكرة تنتشلها من عجزها ويأسها .. تدب في عروقها قوة عجيبة مدمرة .. تريد أن تخلق شيئاً .. داراً .. أسرة .. غيمة دفء .. تركض فجأة .. لا ترى الناس الذين يرمقونها بدهشة .. لا أحد يهمها . تركض .. شعرها يتبعثر .. نظارتها تسقط .. تتحطم تحت قدميها .. تركض .. المطر يبللها . سيارة مسرعة تنثر الأضواء على وجهها . تبتسم .. رائحة عماد في كل شيء .. في الظلمة والمطر والبرد والريح . كيانه المبهم يحوطها . يحنو عليها . يناديها . المصنفات تهرب أمامها .. الأرقام تقفز منها مسعورة . تدور في المياه المتجمعة . تذوب في وابل الأمطار وتنحدر معها في مجاري المدينة .. وهي تركض إليه .. ماذا ستقول له ؟ .. لن يكون هنالك متسع للكلام .. الشمس لن تطلع إلا من الشرق .. الامواج لن تخرس .. الساعة لن تدق الليلة تسع دقات .. عشر دقات .. ستهمس : **أنا سعيدة** .. سعيدة بين أبخرة غيمة الدفء .. ماذا تقول له ؟ يكفي أن تهتف : « **عيناك قدري .. لا أحد يهرب من قدره يا عماد** » ..

الإصابع المتمردة

المكان يعجّ بدمى حية ، وروائح العطور والأصبغة المختلفة تختلط بضحكات نساء جمعهنّ أمرٌ يشتركن فيه جميعاً ، ألا وهو الرغبة في لفت الأنظار ، والفوز بالإعجاب .. واحدة تحدق إلى صورتها المرتسمة أمامها في المرآة ، ثم تنقل نظراتها بسرعة فأر مذعور إلى عيني صاحباتها ، وكأنها تستجدي ومضة حسد تؤكد لها جمالها . وأخرى جلست تحت أتون من شمس آب يدعى « السشوار » مجفّف الشعر ، بينما أخذت المساحيق التي كانت تغطي وجهها تسحّ وتسيل ، فيبدو كاللوحة التي خلط عليها الفنان ألوانه المختلفة .. وثالثة بعثرت شعرها الحلو كبيادر القمح السخية ، وأسلمته إلى الحلاق ليجزّه ، والخصل الذبيحة تترنح على شفة الموسى الحادة .. وإلى جانبها جلست تاتا « فاطمة » ، وقد امتقع وجهها ، وانقبضت أساريرها ، وكأنها تضع مولودها الأول ، وعلى رأسها أكداس كريهة الرائحة ، وضعها جاك الحلاق المحبوب ، لتحيل الحرير الأسود إلى صوف ماعزي أصفر !! .. فقد صرح دودي « دريد » صاحب الكاد « الكاديلاك » الحمراء المكشوفة في بارتي « حفلة رقص » على مستوى أبناء أصحاب الملايين ، بأن الرجال يفضلون الشقراوات .. والواقع انه حينما تعطّف ورمى قنبلته كانت أفكاره تدور حول بوسي .. قطته المدللة .. الشقراء !

وسط هذا الجمع الذي يتناقل الإشاعات كما يلتهم طعامه بلذة وبلاهة .. وقف جاك بقامته الفارعة وشعره ذي السالفين الطويلين وشاربيه الدقيقين اللذين كانا يثيران تنهدة أكثر من عجوز غنية .. وتمر الرؤوس تحت يديه ،

فهذا رأس أشقر مغرور .. ثم رأس كستنائي عجوز .. وبعده رأس أسود تتنهد صاحبته كلما لامست يد جاك طرف خدها .. فالليلة حفل المدينة الراقص الكبير .. وجاك اليوم بطل الساعة .. كل واحدة تتوسل إليه أن يجعل منها اسطورة السهرة ، وملكة جمالها غير المتوجة .. وكأن بقدرته أن يعيد خلقها ..

وهو يتحدث .. ويجيب .. يضحك ويغمز كالأمير الساحر .. يصفق حينما يطلب المقص ، ويضرب على الطاولة بطريقة موسيقية ، فتفهم نينا مساعدته الصامتة أنه يريد المشط أو الموسى ، حسب ايقاع الضربات .. الواقع أنه من الاسهل عليه بكثير أن يحرك لسانه ويطلب ما يشاء ، ولكنه يعرف أن هذه الحركات قد تبهر الجالسات ، وتضفي عليه شخصية خاصة .. وتجعله سيد من قصّ الشعر منذ آدم إلى يومنا بلا منازع . .

يتحرك بين النساء برشاقة راقص الباليه .. لا يرفع عينيه عن الكتلة القابعة أمامه إلا إذا فتح الباب .. حيث تتجه عيناه في نظرة خاطفة .. وفي قلبه دعاء صامت .. « أرجو ألا تكون سوسن » ... وغالباً ما تكون سوسن .. إذ أنها مغرمة بأصابع السيد جاك الذي كان ذات يوم « ابن جيرانها » في حي قديم .. ولكنها اليوم تعرف جيداً كيف تحافظ على مركز زوجها المرموق — بالرغم من عشاقها العشرة — .. وتعرف كيف تتجاهل صديق الطفولة الذي طالما انتظرت مروره في الزقاق المعتم وراء نافذتها الضيقة .. فهي اليوم السيدة (...) زوجة السيد مليونير ! ..

وجاك يعمل بسرعة مذهلة .. يزمّ شفتيه ويقطب جبينه قبل أن يبدأ بتمشيط إحداهنّ حتى ليخيل للمرأة أنه حائر في اختيار أنسب تسريحة تبرز جمالها الفتان .. حتى إذا ما انتهى منها التمع في عينيه بريق ساحر يشبه الإعجاب ، ثم يميل برأسه إلى أحد الجانبين كأنه فقد صوابه أو كاد لجمال المنظر .. ويهمس برقة متناهية : غائعة « أي رائعة » ! وفي الأغلب تكون هذه الكلمة

موجهة لشتاء امرأة عمل جاهداً على نبش ونفش ما تبقى من شعرها الذابل .. ويكون الشيء الوحيد الرائع هو .. جهوده الجبارة ! .. فتندّ عن شفتيها المتهدلتين بسمة تظهر صفاً من أسنانها الاصطناعية البديعة .. بسمة لحلاق النساء المرح ، وصانع الدمى الماهر لسهرة المدينة الكبرى !

وهو يدور بين النساء .. ويضحك من نفسه ! من بسماته الآلية وتعليقاته السخيفة .. من اللامعنى الذي تنطوي عليه كل حركاته .. ويشعر بالاشمئزاز من ذاته .. من ذله وصمته .. ولكن ذلك كله جزء من رأسماله الذي يعيش به . يشتري به خبزه .. وزوجته .. وثيابه !

ها قد مرت عشرة أعوام وأصابعه الطويلة الدقيقة تتحرك بآلية مفجعة ، بينما تلف الرؤوس تحت يديه .. وتتغير .. وهو واقف .. يعدّ الحسناء للقاء حبيبها .. والعروس لليلة زفافها .. وسوسن لعشاقها .. كالجائع في وليمة يعدّها بنفسه للمتخمين !

وتكر الأيام والشهور .. والرؤوس تدور وتدور .. وتمر تحت يديه .. حتى صارت بالنسبة إليه رأساً واحداً وحشياً .. يعيد ويعيد قص شعره وصبغه وتمشيطه كل ثانية .. منذ ولد وحتى يموت .. وتجمّع قدره الممل الفارغ بين ساقي مقص رهيب .. يشعر بأنه لن يقوى قط على اختراقه .. لأنه جبان ! وهو يعرف أنه جبان .. انه يجهل كيف يصادق أو يشكو أو يحب .. بالرغم من العواطف التي يضجّ لها صدره .. انه جبان ! وقد اعتاد خوفه وضعفه كما اعتاد كل شيء .. الاشاعات والفضائح التي تقصّها إحداهنّ بعد أن تقسم عشر فتيات أو أكثر على كتمان .. السر ! وتنهدات العوانس ، بين يديه وتحديقهن المرعب إلى شاربيه وشفتيه .. وكأنه سلعة في سوق العبيد ! .. واعتاد أن يرى أنظار النساء جميعاً تتسلل نحو الباب كلما دخلت امرأة جديدة .. فتفحصها العيون النقادة بقسوة .. كأنها تصفعها .. ثم يبدأ الهمس لاحصاء عيوبها التي لا يلحظها الرجل عادة أو يعجب بها على

الأغلب .. لقد اعتاد ذلك كله .. واعتاد أن يقص شعر سوسن .. ويصفّفه .. ويعدّها للقاء عشاقها . وكأنه مجرد آلة شوهاء .. كم كان يتمنى لو تمردت أصابعه ذات يوم .. ولكن كل شيء يدور حوله ويدفعه .. وهو واقف بسلبية ذليلة .. كل ما في الأمر أن أصابعه تعمل بميكانيكية حيوانية مريعة .. تدمي أعماقه الإنسانية المعزولة . تدمي كيانه البشري الذبيح .. أجل ! إن رؤوسهن باردة فارغة.. كعيونهن الملطخة بستائر الكحل..انها متشابهة إلى أبعد حد.. كرؤوس الخراف التي كان يذبحها أبوه الجزار كل صباح..فيسيل دمها المسفوح على قدميه .. ويلطخ ثيابه .. ويهتز شاربه الكبير لذة وطرباً كلما طار رأس الخروف واستقر على الأرض .. كانت لذة أكثر بكثير من مجرد اعداده للسلخ والبيع واستغلاله في الكسب الحلال .. كان في عمله وسيلة مشروعة لاشباع تمرده .. رغبته العقيمة في الخلق .. لقد فشل في أن يخلق خروفاً فكان عزاؤه في .. قتل الخراف ! وجاك لن ينسى قط يوم حاول أبوه أن يجبره على ممارسة مهنته .. كان ذلك قبل وفاته بعام واحد .. أي حينما كان جاك في السادسة عشرة من عمره .. انه ليذكر جيداً كيف رمى بالسكين التي دفعها اليه أبوه وتفجرت الدموع من عينيه وكأن طفولته المهملة تجمعت في هذه اللحظة المريعة .. بينما ضرب والده الخروف المسكين ، بلذة وجبروت كعادته ، وكأنه إله بين مخلوقاته .. وقال لابنه باحتقار وغضب محموم : « اضرب يا جبان .. ماذا تخشى »؟

منذ ذلك اليوم تأكد أنه جبان .. ولم يجرؤ على الاقتراب من فراش والده الذي مات وهو يهذي بالخراف المذبوحة ..

ومرت به الأيام ، ولكنه ظل دائماً خصلة الأعشاب البحرية الرخوة المستسلمة للتيار .. يوم أخرجته أمه من المدرسة ، بعد وفاة أبيه ، لم يعترض . لم يقل لها إنه يهوى الدراسة ، وأنه متألم ووحيد وضائع ، وأنه يحب سوسن ابنة جيرانه الحسناء ويتمنى لو أنها كانت له ..

وهو لم يقل شيئاً حينما كان يجد في مخدع أمه قفازاً في الشتاء وربطة عنق حمراء في الصيف ! ولم يقل شيئاً يوم أخذته أمه ليعمل مساعداً لحلاق ادعت انه قريب المرحوم والده .. ولم يقل شيئاً حينما وقعت نظراته المذعورة على عنق هذا الحلاق القريب .. ورأى أن ربطة عنقه حمراء : كالتي كان يجدها في غرفة أمه !

فُتح باب المحل فجأة .. فاستيقظ من أفكاره .. حمداً لله .. انها ليست سوسن .. سوسن التي أحبها دائماً .. بالرغم من كل شيء أحبها .. ان التفكير فيها يعيد إليه بعضاً من انسانيته الضائعة .. يؤكد له احساسه البشري .. ولكن .. عندما يزيّنها لعشاقها .. وعندما تنظر إليه بعينيها البلهاوين المتجاهلتين ، يشعر بانسانيته الذليلة ، بعمره الضائع وفشله المرير ..

وحين تأمره بأن يقص شعرها الذي يعبده .. يحس بآلام رهيبة في أصابعه .. ويتمنى أن يرفض .. يتمرد .. أن يفعل شيئاً .. ولكنه جبان كما قال أبوه !

إنه ليذكر جيداً كيف كانت تقف إلى نافذتها الصغيرة قبل أعوام طويلة .. تنثر شعرها المغسول متظاهرة بتجفيفه .. فيخيل إليه انه يشم عبيره مسكراً منعشاً كغابة صنوبرية عذراء .. كم كان يعبد تلك الخصلات المبعثرة .. ويتمنى أن يجمعها بشفتيه .. ويدفن فيها وجهه .. ويحكي لكل شعرة الف والف غزل ! ولكنه كان جباناً حتى معها .. في طفولته لم يكن ليجرؤ على ضربها حين كانت تنتزع منه لعبه .. وفي مراهقته تمنى أن يقبلها ذات مرة .. ولكنه لم يستطع ، بالرغم من أن عينيها كانتا تدعوانه بنداء حار كنسيم السهول الاستوائية ..

وليلة اشترى غمازتيها الحلوتين رجل غني .. لم يجرؤ هو على الشكوى .. كان دائماً مستسلماً وجباناً .. ومضت سوسن .. وخلّفت في أعماقه جرحاً مفتوحاً تأكله ديدان الليالي بشراهة ووحشية .. وتألقت سوسن ، وتناقل

المجتمع حكايا عشاقها الذين كانت تتثرهم حولها كما تنثر العطر على صدرها المثير .. وكان يسمع كل شيء .. ويعرف كل شيء .. ولا يملك إلا أن يزينها كلما جاءت ويقصّ الشعر الذي يعبده بميكانيكية مفجعة غريبة ، فقد غلبت الآلية على انفعالاته كلها حتى كان حزنه على أمه يوم توفيت جزءاً من واجباته الاجتماعية .. جزءاً من الوجه المرضي الذي يقابل به الناس ويدفعون له ثمنه زوجة وخبزاً . وتزوج .. وكذب .. وخدع .. وأتقن فن الفنون : الرياء الاجتماعي..فتألق وأصبح جاك، حلاق الطبقة الارستقراطية ..

كم يتمنى ألا تأتي سوسن اليوم .. وكم يتمنى أن يضمها إلى صدره المتعب طوال عمره .. انه بحاجة إلى امرأة تمنحه ما لا يباع ولا يشترى .. وسوسن بالنسبة إليه تجسيد غريب خاطىء لهذه الأماني المبهمة ..

وفجأة .. انشق الباب عنها .. كان لا بد من أن تجيء استعداداً للحفل الراقص .. دخلت وشلال من ظلام ينسكب على كتفيها ، ويعربد على ظهرها البديع .. وخصرها النحيل يهتز بدلال مثير .. وثوبها الأحمر الضيق يعانق جسدها بشدة ويوحي للناظر بأنه شفاف .. وبأنه سخي كريم في عطائه للعيون النهمة ..

وجلست إلى الكرسي أمامه وقالت بصوت أبح : **« أريد أن أقصّ شعري وأصبغه أحمر »** ! وتمنى أن يرفض ، أن يصرخ ولو مرة واحدة في عمره : **أنا أحب شعرك يا سوسن.. شعرك الأسود الذي طالما حكيت لكل شعرة فيه مأساة وأملاً.. وألف أغنية غزل.. وأرفض أن أقصّه .. لأنني إنسان.. لأنني لا أريد .. لي ارادتي .. لست جباناً »** .. ولكن يده الذليلة تناولت الموسى وبدأت تعمل .. ببطء في بادىء الأمر .. والأفكار تضج في رأسه : يا لصوتها القبيح الذي سمعه .. لشد ما غيّرتها الأيام .. ماذا فعلت بالضحكة الرنانة كالذهب المسفوح ؟ تريد أن تقص شعرها الذي يعبده .. وهو بالذات بدأ يفعل ذلك بذلّ ممزق مريع ! إنه لم يعد إنساناً .. إنه جزء من المشط

الذي يمشط شعرها .. يده مجرد امتداد عظمي للمشط العاجي .. انه جزء من الأثاث الفاخر .. قطعة من قطع « السشوار » التي تعد رأسها للحفل .. انه يفقد الآن كل ما بقي له من إنسانيته الضائعة .. لقد تجمّع عذاب عمره كله في هذه اللحظة الأبدية بطولها .. ان صراخ النساء وجلبتهنّ طوال عشرة أعوام قد تجمّع الآن في أذنيه .. ضارباً رأسه المتعب بقسوة عجيبة .. لقد سئم نفسه .. سئم خيوط القدر التي تشده وتحركه كعروس خشبية .. والمرايا التي تعكس لوجهه عشرات الصور من كل زاوية .. ورأى أن وجهه مخيف .. مخيف كوجه أبيه حين كان يذبح خروفاً .. ويصبغ رأسه بالدم الأحمر .. وسوسن أيضاً تريد أن تصبغ رأسها أحمر ! صوت أبيه يدوي في أذنه .. اضرب يا جبان .. كم يتمنى أن يغرس الموسى الحاد في عنقها الأبيض .. أن يغرسه بقوة ووحشية ثم يديره في الجرح حتى يتدفق الدم الحار ويغسل يديه .. يغسل ذله وعبوديته .. ويصرخ بملء فمه .. « لست جباناً .. لن أقص شعرها » ! ولكنه لا يستطيع .. يعرف انه غير قادر أبداً على إخراج البراكين التي تنبع من صدره .. ولا تصبّ إلا فيه ..

إن أصابعه في حاجة إلى الحرية .. وبيديه حنين مجنون لتمزيق دوامة الشعر التي أخذت تلف وتدور أمام عينيه .. إن أصابعه الخنوع قد بدأت تتمرد وتثور بقوة شيطانية لذيذة .. وتفقد مرونتها الآلية الذليلة .. ولكنه يختنق في دوامة الشعر الأسود الطويل .. ولكل شعرة طرف حاد كنصل سكين ينغرس في عنقه .. ووسط الضجيج والعذاب سمع صوت أبيه يضج بالتحدي والتمرد : « اضرب يا جبان » .. وحاول بكل كيانه أن يضرب كما كان أبوه يضرب الخروف ويتلذذ .. حاول أن يركز في أنامله عصيانه المدمّر على كل أيامه .. على طفولته وأمه المهملة .. والرجل ذي ربطة العنق الحمراء .. ولكن التمرد ظل ، ككل أحاسيسه ، مخنوقاً .. دفيناً .. يمزقه .. ولكنه لم يضرب ! وإنما استمرت اليدان في قص الغدائر بذلّ إنسان متألم متعب ضائع ..

وأحس بأنه كان يلطخ نفسه بوحل أحمر قذر حينما كدس الأصبغة الحمراء على رأسها .. ولما انتهى ونظر إليها أدرك أنها ماتت.. وإن المدينة كلها ستحتفل الليلة بمأتم سوسن في أعماقه .. سوسن .. نجمه الوحيد الذي هوى ..

ومضت سوسن ومعها كل ما بقي له من نفسه .. ومضى الجميع .. ونظر إلى نفسه في المرآة ورأى أن وجه جزار يطل من عينيه ، ويصرخ فيه بسخرية محرقة : **يا جبان!** جبان .. وبصقته جدران محله الفخم إلى الشوارع الرمادية .. فسار مستتراً بالظلال وكأنه يختبىء من نفسه .. من خيبة عمره المهدور .. انه ذرة دنسة معزولة عن كل ما حولها .. يا لأصابعه المتمردة التي تتقلص في إعياء مريع .. كم تؤلمه ! وساقته قدماه إلى الضاحية الصحراوية التي أقيم الحفل الساحر في واحة وسطها .. الاضواء تتألق من بعيد .. فيبدو المكان لعينيه كجزيرة الهناء المحرمة .. وصوت الموسيقى الخافت تحمله ليالي الصيف لأذنيه مع ضحكات نساء .. لا ريب أن ضحكة سوسن بينها ..

ويشعر أن كيانه الإنساني يتشنج ويتفتت في صمت مفجع ، يزلزل أعماقه ، ويعصف بأعصابه .. ويتمنى أن يحدث أي شيء يدمر ما حوله .. أن يشعر بأن في الحياة ظاهرة طبيعية — على الأقل — تتجاوب معه .. ولكن كل شيء يظل في دورته الأزلية البلهاء — كل شيء يتحرك بآلية وخزازة .. كعقارب الساعة .. كالشمس الذليلة ! حتى الشمس ، ما جرؤت قط على الظهور قبل أوانها .. وهو أيضاً .. آلة جبانة .. كملايين النمل التي تدب صباحاً وتعود مساءً .. بتفاهة مؤبدة .. يا للمدينة البلهاء السادرة في لهوها وصخبها وضجيجها .. دون أن تدري أنها تسحق نفوساً ونفوساً ! يا للمدينة التي تعربد وتضيء ، وكأنه ليس فيها قلوب متمردة يدمرها إحساسها بالعبث ، بالتفاهة ، والضياع !

كان قد اقترب كثيراً من مكان الحفل حتى ان الأضواء القوية أخذت ترهق عينيه .. وكأنه خفاش اعتاد ظلامه ، حاول أن يخفيها بيده .. فلم

يستطع .. لم يستطع تحريك يده !

لقد تمردت الأصابع ! واسترخت اليد إلى جانب الجسد الموهن .. وفجأة أدرك بشيء من الذعر وبكثير من الارتياح المبهم أن أصابعه أصيبت .. بالشلل !

ولا يدري لِمَ أحس بلذة وحشية غامضة تجتاح دهاليز أعماقه ، وبألم جبار عاصف كآلة تنفجر .. فتهالك على الارض ، وأسند رأسه إلى حجر أسود بجانبه .. بينما تدحرجت دموع حمراء من ثقبين مظلمين في وجهه ..

واقتربت منه قطة ضائعة .. وأخذت تعوي وتموء بطريقة إنسانية مسعورة .. فيها حرقة غريبة ولوعة مبهمة .. ولكن صرخاتها ضاعت مع دموع صانع الدمى .. في ضجيج حفل المدينة الكبير .

ما وراء الحب

أيها الإنسان الغريب الذي يقودني إلى شاطىء لم أره ودرب لم أطأها .. تراك ستمنحني الخلود حقاً بعدما فشلت في انتزاعه بنفسي ؟ تراك ستمنحني الخلود الليلة عند ذلك الشاطىء الأسود الغامض الذي طالما حدثتني عنه ؟

السيارة ما زالت تندس في احشاء الظلمة ، وقد خلفت أضواء المدينة وراءها .. تندفع بسرعة شيطانية كوميض عينيه ، تدور بنا في المنعطفات الساحلية الخطرة وأنامله الفنانة تتشنج فوق المقود .. وعيناي معلقتان بجانب وجهه المحبب .. بشفتيه اللتين ترتعشان كظل معبد في غدير حالم .. بالاصرار المبدع في انتصاب رقبته.كل ما فيه يذكرني يتحفز إله يستعد للحظة الخلق الحاسمة ..

عجلات السيارة تئن ذعراً من سرعة هيثم . صريرها في المنعطفات يفجّر في كياني نشوة تحدّ همجية .. انني أحيا وأحب.. لا أريد أن أموت. فالليل عجينة طيب ودفء ورؤى . وشذى زهر الليمون يفوح من البيارات المجاورة سحابات خفية ، تحملني في ثرائها إلى قمم فستقية لا تعرف الهرم .

ترى هل يستطيع هيثم أن يبعثني في لوحة تفوح منها أنفاس زهر الليمون ، ويسمع فيها هتاف الأمواج الابح ؟ لماذا أتساءل ؟ .. التساؤل بداية الشك .. وأنا قد اعتدت أن أؤمن به منذ التقينا للمرة الأولى في معرضه الكبير ..

يلذ لي أن أذكر تلك الأمسية من أواخر الصيف الماضي . كنت أحب الرسم وأمارسه منذ طفولتي ، لذا لم أتردد في الذهاب لمشاهدة معرض هيثم ،

فنان المدينة الأول ...

وهناك التقيت بعينيه البنفسجيتين ، وكانت تحيط بها عشرات من العيون البله لفتيات يقرأن الصحف بالشوكة والسكين ويرتدين القفازات حتى أثناء النوم .. كن يتهافتن عليه ويضاحكنه .. لا أدري لِمَ وقفت أتأمله بإشفاق وذهول . مسكبة البنفسج في عينيه كانت جافة ، وكنت أعرف أنني غيمة عقيمة . كان يتظاهر بالمرح رغم سأمه ، ويضحك لصهيلهن الفاقع .. ولما مررت بهم هتف بي في غمرة مزاحه : « وأنت أيتها الغجرية .. هل تودّين أن أرسمك أيضاً ؟ » وبعناد بغل أجبته : « لا .. أفضل أن تعلمني الرسم » ..

أعجبته وقاحتي فعاد يسأل : « لماذا ؟ » .

— علّمني الرسم كي لا أموت .. كي أخلق لوحة استمرّ فيها أبداً ...

وتصادقنا .. وعلمني كيف أرسم ، وعلمته كيف يحب !

لكن مسكبة البنفسج ظلت عطشى في عينيه .. أتأملها الآن وأضواء لوحة القيادة الباهتة تماوج في سمائها .. ستظل عطشى لأنني لن أتزوج به .. وإن مضيت ، فأنا واثقة من انه لن ينساني أبداً .. لا يمكن لمثل هذا الشاب أن ينسى الفتاة الوحيدة التي رفضت أن تتزوج به رغم إلحاحه ، والتي آمن في الوقت نفسه بأنها أحبته حقاً ..

ألتفت إلى الوراء . المنحنى يبتلع أضواء المدينة . الناس يموتون هناك . لن أموت . بعد قليل نصل إلى الشاطىء المنشود ، سأقف أمام هيثم ليرسمني في ضوء القمر . ليبخرني بين أهدابه ويصعدني نجمة عند الأفق . ليبعثني دفقة في موجة وثنية الأهازيج . وردة مغاربية في قمة ما عانقتها سوى الغيوم والنسور . لينبتني قصيدة هوجاء في جبين عاصفة .. أتراني أنحو بهذا الأسلوب ؟ أبي قال إن عليّ أن أصنع خلودي بنفسي وأن لا أحد يصنع للآخرين خلودهم ، وإنه لا جدوى من أن يرسمني هيثم .

ورغم رأيه هذا ، لم يعترض حينما ارتديت زي الغجرية ، ولم يعترض حينما غادرت البيت منذ وقت قريب وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، ولكن صمته كان يهذي ، وكنت أفهم هذيان صمته كما يفهم هذيان صمتي .. منذ طفولتي وأنا أتجادل معه دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة . صمته كان يعاتبني متخوفاً هامساً : **أرجو ألا يكون للعامل الذي صعقه التيار صباحاً أمام شرفتك صلة بتراجعك هذا .. لماذا قبلت اليوم بالذات أن يرسمك هيثم بعدما كنت ترفضين عرضه وتفضلين الرسم بنفسك ؟ الخوف والخلود لا يتفقان ..**

لن تنتصري على الموت ما دمت تخافينه ..

كان واثقاً من أن تعليله هذا هو الحقيقة ، ولم يكن مخطئاً . ورأيت بعينيه ساعة غادرت البيت نظرة مفجعة الحزن والحنان .

هذه النظرة بالذات تخيفني وتملأني باحساس غربة سحيقة .. تذكرني أن كل إنسان يولد وحيداً ويصلب وحيداً وعليه أن ينتصر على الموت وحيداً أيضاً ..

ألتفت إلى هيثم . ما زال يقود سيارته بجنون . أحبه ، لكن يخيل إلي انني لو مددت يدي لأتحقق من وجوده ، لاخترقت أصابعي جسده كأنه حلم زنبقة ذابلة .. لو حاولت الإمساك به لاستحال في قبضتي إلى حفنة من دخان ، ولظللت أواجه قدري وحيدة .. كأنه ليس هنا أمامي يقودني إلى الشاطىء الأسود ليمنحني الخلود .. كأنه هو أيضاً مصلوب فوق عمود من أعمدة كهرباء المدينة ..

اهرب من خواطري ، أدير رأسي نحو النافذة . القمر يتدحرج عند حافة الجبل البعيد . حيويته في ملاحقتي تثير حماستي .. الجبل يعلو . يلتحف غابات سوداء تتكاثف ، أنين العجلات كئيب . القمر يهوي في الغابة . يتمزق بين أغصانها . السيارة ما زالت تركض والقمر رغم تمزقه ينطلق

في الغابة . الجبل يسقط . القمر يعلو منتصراً . تتجمع أشتاته في ثانية . يجمد في أوقيانوسات السماء . السيارة ما زالت تطير . لن أموت . رأسي ثقيل يسقط على المقعد . أصابع هيثم تتسلل من خلف المقعد وتغزو الخصل المتدلية .

رغبة بدائية بالبكاء تغمرني . أنا وحيدة وخائفة . أقترب منه وألتصق به . صوته يتحسسني عميقاً مثيراً وهو يسأل : « ما الذي يخيفك ؟ » أسمعها تجيب : « لا شيء » . أكره أن يموت الناس أمامي ، لأنهم يقنعوني بأنني سأموت فعلاً » . وكأسد لا يدري كيف استطعت ترويضه يتوسل قائلاً : « للمرة السابعة أرجو أن تقبلي بي زوجاً .. سوف أسعدك وستتخلصين من هواجسك كلها » .

هواجس ؟ .. من يدري .. كلماته تلسعني . لن أتزوجه . لا أستطيع . يجب ألا يكتشف الحقيقة .. اتماسك أمام توسل البنفسج العطش في عينيه : ألم نصل بعد يا هيثم ؟ »

لا يجيب . مقدمة السيارة تجيب . تتجه نحو طريق فرعية ضيقة ، عمودية على الشاطىء . عبق الماء المالح يوقظ شرهي إلى الحياة ، أحب البحر . أعتقد ان مدن الأعماق سعيدة لأن أسماكها خالدة لا يمكن أن تمرض أو تموت بلا سبب مثلنا ، ولأنه ليس فيها أعمدة كهرباء .. أما نحن فنمرض ونتعذب ونصلب على أعمدة الكهرباء دون ذنب ..

السيارة ما زالت تتقدم . نصعد تلاً رملياً صغيراً . نهبط فجأة ، وفجأة يبزغ الخليج الأسود .. كذكرى شاحبة لأول حب ينبسط تحت أقدامنا بوداعة . يمنح نفسه لأنظارنا بسخاء . وأراه ، مدهش الاستدارة عجيباً جذاباً كأسطورة .. وأراه ، يبدأ من نجوم صيفية ، ما زلنا نقترب من الماء . ضوء القمر يتلألأ فوق رماله الرمادية . شاطىء أصداف تفتحت لشذى زهر الليمون الدافىء وسكبت لآلئها . الأمواج تلعق النور عن الشاطىء بخفة عرائس البحر .. يا مدينتي التي تهترىء في الليل ، في الشاطىء البكر هنا تبعث

أمجاد الصحو والصيف والقمر .. أحس برغبة حارة في أن أمتلك هذا العالم المدهش الذي يقع تحت حواسي . عاصفة النشوة أقسى من أن تحتملها سهول الخيزران في نفسي ... هنا ، في مهرجان الليل سيمنحني الخلود . سيسكبني لؤلؤة في حضن محارة ويودعني موجة من موجات الأعماق ..

– قف يا هيثم ودعنا نمش قليلاً ..

صوته رنين مرساة ذهبية في شطآن منبوذة ، يقول : « لا أستطيع الوقوف هنا ، إنني بحاجة إلى أن تكون السيارة قريبة مني .. سأصل بمدخرتها سلكاً ومصباحاً صغيراً . هل تريدين أن أمزج الألوان في الظلام ؟ » .

لا أجيب. يتقدم بالسيارة . نحن على بعد أمتار قليلة من الماء . يتوقف. اقفز . اخلع حذائي المهذب . ادفن قدمي في بداءة الرمل . أقفز وأدور وأرقص وأرحب بالآله في كل شيء . أسقط على ركبتي وأنا ألهث . تعبت من صلاة النشوة . أطمر نفسي بالرمل الحي . الموت هنا يبدو مغرياً . لن أصلب على عمود كهرباء في الشارع . لن تأتي السيارة التي تنوح وهي تلملم الموتى من الأزقة لتشحنني .. سأظل روحاً شابة تهوم في الشاطىء الأسود ، تحرسه ، تمتزج مع أنسام نيسان وشذى زهر الليمون ..

هيثم يرتب أشياءه وفرشاته وألوانه . مصباح باهت يضيء قرب اللوحة المعدة بعد أن وصل سلكه بمدخرة سيارته . يجهز بعض الاسطوانات ، يعمل بخفة أسد يصنع وليمة للخلود . لحن غجري حالم يغمر سحر المكان كسحابة ضباب ملونة .. يقترب مني .. عيناه تمطرانني شهباً . فراشات مرحات تتطاير في مسكبة البنفسج . يقول لي : « تمددي فوق الرمال السود ، يجب أن أنتهي من اللوحة قبل مطلع الفجر ... أقسم إني سأصنع لك الخلود الليلة »

لا أجيب . ليته يجلس بجانبي . أحدثه طويلاً عن الحقيقة . ليتنا نصنع الحياة قبل أن نصنع الخلود .. يخيل إلي ان الخلود يمكن أن يتفجر بعفوية من

لحظة حماسة حقيقية للحياة .. لكنني أجبن من أن أواجه حقيقتي .

هيثم يبدو منغمساً في عمله . يهتف بي : « دعي ثوبك يسقط على كتفك اليمنى . ويكشف عن جزء من صدرك » .

ذعرٌ حقيقي يسوطني . سيكتشف الحقيقة . لا أستطيع ، لا أتحرك . يعاتبني : ألا تثقين بي ؟ أم انه عنادك ؟

من قال إني لا أثق به ؟

أكشف عن كتفي اليسرى وجزء من صدري ..

يصرخ غاضباً : « قلت لك اليمنى » .

لا أتحرك . يتجاهل عصياني أنا المتمردة قبل أن يخلقني . يستمر في الرسم ، شيء ما في سحر الشاطىء يسخر منا . يهتف بنا أن نصنع الحياة قبل أن نفكر في الخلود . يقول إننا لن نخاف الموت إذا عشنا لحظة حقيقية واحدة . الذين لم يعيشوا فعلاً هم وحدهم الذين يخافون الموت .. وهم الذين يفشلون في أن يصنعوا الخلود . وأنا محرومة من أن أحيا . قريباً يختطفني موكب الخريف دون أن يزهر في جدبي ربيع .. دون أن أرسم اللوحة التي طالما حلمت بخلقها وحدثت أبي عنها .

هيثم ما زال غارقاً بين خشبته ومصباحه وألوانه . رائحة زهر الليمون واللحن الغجري يملآنني حياة ودفئاً وأملاً .. ذات يوم سأرسم اللوحة . سأحس انها نبتت من الأرض فعلاً ، وإن لها جذوراً تنغرس في الشمس وفي الصخر وفي العاصفة وجذوراً تلبلب بين أهدابي وأعصابي،وانها عالم حي يمزج وجودي الصغير بالوجود الأكبر ... وانني يوم أرسمها سأظل فتاة صغيرة لا تهرم ولا تموت ولا تمرض كالأسماك . يوقظني صوته قائلاً : « أغمضي عينيك » .

ــ لماذا ؟ ..

ــ أيتها العنيدة . أغمضي عينيك .. أريد أن أرسم الوداعة والطمأنينة

في وجهك ..
– أخاف أن أغمض عيني .

يصرخ ثائراً : « قلت لك أغمضيها .. عنادك عجيب ! »

لا مفر. أغمضيها . الشاطىء يذبل . النجوم تنطفىء . اللحن الغجري يغرق في كهوف سحيقة . رائحة الليمون مشحونة برطوبة الفناء . هدير الأمواج يعلو . موجات سود حاقدة تهاجمني . تحتلني . تحملني إلى ليل المدينة المهترىء . الشارع أمام دارنا مهزوز زائغ ينتحب البوم في كواته .. أعمدة الكهرباء وحدها تبدو صلبة حقيقية ، صامدة كأعواد مشانق عطشى لشهقات الذعر .. هنالك عمود ما أقيم لأجلي . أرفض أن أتحرك . أنا على الشرفة . الموجات السود تلطمني . الرجل المجهول يسير في الشارع . يقف أمامي على الرصيف يناديني . يقول وبين شفتيه ضحكة شيطانية انه سيصلح كهرباء دارنا . ينتعل قطعتين من الحديد . يتسلق العمود . رأسه يفقد مظهره الإنساني ويستحيل إلى رأس فأر . يتسلق العمود : إبقَ إنساناً ، لسنا بحاجة إلى الكهرباء ... لا يسمع . يصل إلى الأعلى .

يعبث بعدد من الأسلاك . شهقة مخيفة . يهوي إلى الرصيف كتلة من فحم وذعر واستسلام . يستعيد رأسه الإنساني . عيناه فجوتان ينسكب دم مظلم منها . تهمهم أصوات غامضة بأنه مات .

السيارة التي تنوح وهي تلملم الموتى من الأزقة تحمله وتمضي .. يولد من جديد على الرصيف . أريد أن أصرخ . أن أحذره . لا أستطيع . يتقدم . يصعد من جديد . يصعقه التيار . يهوي . تنوح السيارة . يولد من جديد . يتسلق العمود . يهوي . يصنع العدم أمامي عشرات المرات وأنا لا أستطيع أن أصرخ . موجة خفية تشدني عن الشرفة تحاول أن تصلبني من كتفي اليمنى وصدري فوق أحد الأعمدة . وأعول فجأة بهلع حقيقي بدائي : « لا أريد أن أموت .. لا أريد » .

ذراعان تحيطان بي . تهزانني . هيثم أمامي يمسح دموعي ويهدئني . ما زلت على الشاطىء الأسود . القمر والصيف وأنفاس زهر الليمون . من قال إني كنت أصرخ ؟ .. لم يحدث شيء . أبي كان على حق حينما ذكرني بالعامل الذي صعقه التيار فمات أمام شرفتي . هيثم يشدني إليه وبريق مجنون يلتمع في عينيه :

– لن تموتي .. لقد خلدتك .. زرعتك نجمة في هذا الشاطىء .. تعالي .. أنظري إلى اللوحة ..

أنهض معه . اللوحة أمامي تلتمع مع الفجر الذي بدأ يبعثر خصلاته . أرى فيها غجرية ثرية الشعر بدائية التورد . عيناها مغمضتان باستسلام عجيب . الصحة تتفجر من كتفها اليمنى وطرف نهدها العاري حيث تتركز نظراتي والدم يتوهج في مسامي .. وأصرخ فيه :

– لماذا عرّيت كتفها وصدرها ؟ .. لقد رفضت أنا ذلك ..

يجيب مفتخراً : « رسمت الأشياء كما أتصورها .. وقد يكون الواقع أكثر جمالاً . أعتذر » .

وأعود أتأملها . أتأمل وجهها الساذج الوديع . هذه هي الفتاة التي يحبها .. رسمها دون أن ينظر إلى وجهي بينما كنت وحيدة أصلّب على أحد أعمدة المدينة كما صلب التيار صباحاً ذلك العامل المسكين . هذه غريمتي . أتمنى أن أغرس الدبابيس في كتفها العارية وصدرها المتفجر صحة . لو يعرف ...

أحس بحاجة لأن أعترف له بالحقيقة . أتوسل إليه بأن يحطمها هي ويحبني أنا . سأفقده إذا أخبرته . سأظل صامتة ، وقريباً ينتهي كل شيء . الفجر يكاد يطلع . يجب أن نهرب من هذا المكان . لقد منحها الخلود ولم يمنحني إياه . يجب أن نهرب . أخاف من الوقوف أمامه في فجر هذا الشاطىء ، حينما يكون كل شيء ناصعاً وحقيقياً إلا أنا .. إلا أنا أخدعه بالثوب الملون والشعر المتمرد وأطواق الغجرية .. دعنا نعود يا هيثم . جمودي أمام لوحته

لا يهمه . يبدو واثقاً بها وفخوراً . ليتني أحطمها . يلملم أشياءه بسرعة . نعودُ إلى السيارة . يدير محركها وأنا أهتف : « أتوسل إليك أن تسرع ! دعنا ننسحب قبل أن يطلع الضياء . »

لهفتي تدهشه لكنه يطيع . لا يرفض لي طلباً . السيارة تزمجر ولا تتحرك . أقفز منها وأرى أن عجلاتها قد غاصت في الرمل حتى نصفها . أتوسل إليه أن يحاول من جديد . أستميت في دفعها من مؤخرتها . العجلات تدور في مكانها وسحب كثيفة من الرمل تتناثر حولها .. السيارة تزداد غوصاً في الرمل . النور بدأ ينسكب من مكان ما . هيثم يقول انه من المستحيل أن تتحرك السيارة . من أية فجوة ينسكب النور لأسدّها بجسدي . يخيل إليّ انه يولد من كل ذرة رمل . من الأفق .. من انتفاضات الأمواج .. من صفاء الزبد .. من كل شيء إلا من صدري .. الفجر يولد ندياً بكراً وحشي الصفاء . هيثم يقترب .. يجب ألا يراني في النور هنا ، حيث يغتسل كل شيء بالفجر وينفتح للنور بلا خوف .. إلا أنا

.. يجب أن أهرب .. الضياء يتفجر من كل مكان حولي .. ينجدل في هالات .. يدنو . يغمرني .. يجب أن أهرب .. هيثم ينظر إلى رعبي متسائلاً .. إنه طيب وصادق ومخلص ، يحبها كثيراً حسناء اللوحة .. يظنني هي .. لن أدعه يكتشف الحقيقة ، أنطلق فجأة هاربة من الشمس .. أعدو ، عنادي وذعري نيران تلهب موطىء أقدامي . أنتزعها بصعوبة من الرمل الهش وأظل أعدو .. وقع أقدام هيثم ورائي . متعبة . لن أستسلم . يد ثقيلة على كتفي .. تمسك بثوبي . أحاول انتزاعه منها وأظل أعدو . الثوب يتمزق . ينكشف عن كتفي اليمنى وصدري .

اليد الثقيلة تسمرني – وعينا هيثم تتأملان ما انكشف عنه الثوب .

غابات من ذعر واشمئزاز وبؤس تغطي مسكبة البنفسج . أقف أمامه كأن الأمر لا يعنيني بينما هو يتأمل آثار اللحم الممزق في كتفي وصدري .

يظل يتأملني بوجه جمّدت الصدمة ملامحه .

لا أشعر بخجل لقبح المنظر . أهتف به.« قل أي شيء.. قل انني خدعتك .. قل إن آثار السرطان في صدري تخيفك .. قل إن التشويه الذي أحدثته العملية في صدري يخمش البنفسج المدلل في عينيك .... قل انك تحبها ، حسناء اللوحة ، لا أنا ... انني سعيدة لأنك عرفت » ...

لا يجيب . يظل يحدق ذاهلاً . الوجود يبسط نفسه أمامي بعري صادق ، وأنا أقف أمامه ببشاعة لكنها حقيقية . الآن أستطيع أن أنضم إلى الأشياء أحرقها بآلامي وتحرقني بصمودها لننصهر ونصبح كلاً واحداً يتصعد من فحم إلى ماس . .

الآن أفهم ما كان يقوله أبي عن الشجاعة والإخلاص في مواجهة الموت والوجود ..

سأرسم اللوحة .. لم يعد بيننا حجاب ..

هيثم ما زال جامداً . يده تتحرك بحنان عجيب لتستر كتفي ببقايا الثوب .

لست بحاجة إلى شفقة إنسان .. أحس اني قوية ومحبوبة كما لم أكن قط من قبل . الوجود الذي كان قد نفاني يحتضنني . الفجر ينعشني . يسكب في تشويه صدري بركته وسطوعه . لم أعد مهجورة . هيثم يتأمل وجهي والعرق البارد يتصبب منه . يداه تحيطان بوجهي بحنان حقيقي . تكادان تخيفانه . لن يعيدني طفلة متعبة ضالة . لقد فقد تأثيره عليّ .. أحس انني أتجاوزه وأتجاوز مراهقتي وأخلفها ورائي في بحر الحب الضيق وما فيه من أنواء سطحية ، وزبد يعمي الأعين ويلهيها عن حقيقة وجودها .. أشعر بأنني في هذه اللحظة أنسلخ كلياً عن وجود تقليدي مبهرج ضيق ، وأرتمي في محيطات شاسعة هادئة الضياء حيث يبدو كل شيء ضخماً وحقيقياً وصامتاً ... اسطورة الحب أتجاوزها إلى آفاق جديدة من الرعب والحقيقة والصفاء والألم .

هيثم أرثي لقوته ..

يحبها كثيراً حسناء اللوحة ...
صوته الممزق يقول : « هل رفضت الزواج بي لهذا السبب ؟ »
أجيب : « ألا يكفي ؟ قال الطبيب الذي استأصله انه من المحتمل أن يعاودني المرض في أية لحظة » ...
ـ لهذا كنت تبحثين عن الخلود ؟ .
ـ لا أدري .. لم أعد أخشى الموت وما زلت أرغب في الخلود .. وأنت قد فشلت في منحي إياه .. انك تحبها هي .. لا تنكر ..
ـ إنني مخلص لنفسي .. سنتزوج ..
تصفعني كلماته ..
ـ سيدي .. إن كنت تصر على الاستمرار في أسطورة الحب فأنا أكره الصدقات ..
لا يجيب .. يعدو نحو السيارة : ينتزع اللوحة .. يحطمها على الصخر بجنون .. في حركاته بكاء حاد مكتوم.الأمواج تزحف لتلتهم البقايا .. ألحق به بعد فوات الأوان .
أسأله : « لماذا حطمتها ؟ »
ـ لا يمكن أن نمنح الخلود لشيء غير موجود ...
ـ كانت المدينة ستصفق لها طويلاً ...
ـ لن أزيّف بعد اليوم لتصفيق المدينة .
أرفع عيني إليه وأتأمله . ملامحه تشف كما لم تشف الأشياء من قبل ، عيناه سماء من فهم ومشاركة واستجابة عميقة .. عميقة . شبه استعطاف ورجاء في وجهه يسحرني .
يسير ...
ـ إلى أين يا هيثم ؟
ـ سنسير حتى الطريق العام كي نجد من ينقلنا إلى المدينة ..
أنتزع خطواتي وألحق به ..

يحدثني كأنه يخاطب نفسه .
— لقد تجاوزت أراضي الحب الرخوة ، وبدأت تزحفين في الأرض البوار .. وبدأت تمسكين بأحجار النار لمجرد انها صلبة وحقيقية .. سترسمين اللوحة .. انني أحسدك .

أسير إلى جانبه . صدري المشوه متكبر يعانق الضياء . الشمس تكاد تطلع . لم تعد تخيفني . أنفاس زهر الليمون تفور من الأفق . لقد استهلكنا أقنعة الحب ، واليوم نواجه قدرنا عاريين إلا من حقيقتنا . اسمعه يحدثني بحزن مصبري خاشع :
— إنني أحترم عنادك وكفاحك .. أيتها الإنسانة ، هل تقبلين صداقتي ؟ ..

بعد عشرات من حكايات الحب المراهقة .. بعد انهدام آكام من الأوهام الفضية ... بعد سلخ أردية التحذلق والعادات والأماني الاجتماعية .. بعد عذاب وخوف من كل شيء ... يتقدم إنسان ليطلب الصداقة ... صداقة الوعي بحربنا اليائسة مع القدر .

وصيحتنا الممزقة رغم كل شيء . نتحداك .. لن نموت ..

يده تضم يدي في صداقة الند للند .. أقدامنا ترسم على الرمال خطين متوازيين متعرجين .. أنا متعبة . لم أعد أقوى على السير .. ألم حادّ يمزقني .
لن أموت ، حتى أرسم اللوحة ...

أوهام الحب والغيرة والجمال لم تعد تقف بيني وبين الأشياء .. حسبي انني إنسانة ، بشعة ، لكنها حقيقية ، لأنصهر بالأشياء في صدق وإخلاص.
أبي قال أن لا أحد يصنع للآخرين خلودهم ، وسأصنع خلودي بنفسي...
وسأرسم لنفسي لوحتي الحقيقية وسأكون مخلصة لبشاعتها ..
الموت ؟ ...
من قال إني سأموت قبل أن أنسكب في لوحة أستمرّ فيها ؟ ..
من قال إني سأموت ؟ ..


القطة

جرس الهاتف يرن .

ملحاح وأبله هو صوته ، كذبابة جائعة . لا ريب في ان أمها تحدث الجارة من النافذة كعادتها . ستجيب . تسرع . تختطف السماعة كي يخرس الجهاز ثم ترفعها ببلادة . تغوص في شجرها الغجري المبعثر ..

— من ؟ .. أستاذ سليم .. أهلاً .. ظننتك في بيروت .

— وصلت منذ لحظات متعباً ووجدت برقية من الأستاذ نادر يقول لي فيها انه سيصل الليلة في الثامنة والنصف ، ورجا فيها أن ترافقيني إلى المطار . يبدو ان إحدى نوبات العمل قد انتابته .. وليرحمنا الله !

صوته مختلط بضجيج أبواق السيارات والمارة . لا ريب في انه يحدثها من الدكان المجاور لداره . اسم نادر سمعته جيداً . تقبض على السماعة بشراسة عنكبوت يتخبط في الفراغ ولا يشده إلى ركنه في السقف سوى خيط رفيع يغوص في فكوكه ..

— لم أسمع جيداً .. ماذا قلت عن الأستاذ نادر ؟

— قلت انه سيعود بطائرة الثامنة والنصف . سآتي إليك بعد ثلاثة أرباع الساعة لنذهب فنستقبلها معاً ..

هل قال « نستقبلها ؟ » ولكن نادر رحل وحده .. إنه ضجيج الشارع بلا ريب ..

إنقضى الشهر وهي حائرة ، هل تذهب لاستقباله ؟ هل تكون له ،

أبداً له ؟ ... أم تظل قطتّه التي تحبره ؟ أم تخبره ، بأنها يوم تحررت من أسعد أقسمت ألا تكشف أعماقها لرجل .. يجب أن تقرر بسرعة .. الآن .. نظراتها تتجه نحو غرفتها حائرة مستنجدة ، تود لو تخترق الجدار لتقع على صورة كبيرة لاسعد علقتها مقابل فراشها .. الصورة كريهة ونتنة وإطارها خشبي كالتابوت . لا . لن تكون لأحد بعد اليوم ..

ـ لن أذهب معك يا سليم ..

الضجيج ما زال يتدفق من السماعة ويغمر الغرفة .. لماذا لا تلقي بها وتستريح ؟

ـ ماذا تقولين ؟

ـ قلت انني لن أذهب معك لاستقباله ..

ـ لا أستطيع أن أسمعك .. سأمرّ عليك في الثامنة . كوني مستعدة . اسرعي ..

ـ ولكن ..

تسمع صوت السماعة وهو يعيدها إلى مكانها . الضجيج في الغرفة يضمحل فجأة . ومضة فرح خبيثة تسطع في عينيها . انها مضطرة للذهاب ، لا تريد أن تبدو قليلة الأدب أمام سليم المسؤول الثاني في الشركة بعد نادر .. تعتذر من لسعة مبهمة بدأت تؤرق كيانها كله .. ذهابي لا يعني شيئاً . أستطيع أن أرفضه فيما بعد .. ثم انني سكرتيرته وقد تكون بجعبته أعمال هامة فعلاً تستدعي وجودي السريع . سأذهب ... باب يصفق وراءها . تكتشف انها ما زالت تحمل السماعة الخرساء في يدها .. تعيدها إلى مكانها وتلتفت . لماذا تلوّن أمها خدها بهذا الأسلوب ؟ فمها واسع جداً .. يخيل إليها انه يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم . أبداً تسألها :

ـ لماذا تعلقين صورة أسعد في غرفتك ما دمت قد أصررت على فسخ خطبتكما وانتهى كل شيء منذ أكثر من عام ؟ هل أنت مجنونة ؟

كيف تركت أسعد الثري بسبب هفوة تُغتفر لأي رجل ؟ على الأخص إذا كان هذا الرجل ثرياً ..

تخاطب أمها :

– إتصل بي سليم وقال إن الأستاذ نادر سيعود الليلة أنا ذاهبة مع سائر موظفي الشركة لاستقباله .

انها تكذب . يؤسفها أن تضطر للكذب كلما خاطبت أمها . تريد أن تتحاشى أية مناقشة معها . ترى جيداً انها تفتح فمها وتغلقه كأنها تتحدث ، رسوم الستائر وراءها غريبة الألوان . أساورها الذهبية تلتمع بابتذال ، تذكرها بأشياء قذرة . بأسعد . بالثمن الذي اختبأ وراءه ليشتري كبرياءها . كلهم يدفع من محفظته وتزلفه ..لا أحد يمنح من نفسه . تنسحب إلى غرفتها . تغلق الباب. الغرفة مظلمة . هدوء لزج بليد يزحف كأفعى ويلف الظلمة بغلالة من وحشة وذعر . الشتاء غراب أسود مكوم تحت أقدامها ينقرها. حزمة من نور الشارع تنسكب من النافذة المفتوحة فوق باب شرفتها المغلق ، وتتراقص بشراهة شيطانية على صورة أسعد . لقد تعودت أن تدمغ بها هذه البقعة من الجدار بالذات كيلا ترى سواها عندما تستلقي في فراشها .. لتظل أبداً أمامهـــا كذكراه : كبيرة وكئيبة .. باهتة كشبح ، لكنها موجودة .. كحقيقة ممزقة مرعبة ترفض تصديقها .. شفتاه في نصف انفتاحة .. في نشوة وذعر .. تماماً كيوم فاجأته بزيارتها في داره .. صرامته .. لامبالاته .. كبرياؤه .. ماذا حدث ؟ القيم كلها تتطاير مع فقاعات صابون حمام معطر .. لماذا أعطاها مفتاح داره إذا كان يعرف انه سيخونها ؟ لماذا لم يستعده أثناء مرضها ما دامت حسناء سواها ستعبث بتحفه ورياشه ؟ ليتني لم أمرض .. بل ليتني لم أشف أبداً .. جاءت لتفاجئه بأنها تحسنت . تحدت أوامر الطبيب . الوهم الأخاذ تمزق مع أشياء كثيرة لا تدري ما هي . رائحة عطر رخيص ظلت تعشش في حنايا منخريها منذ ذلك اليوم .. الزلزال لم يتوقف .. زلزال

في الدرج حيث انطلقت راكضة هاربة من الاله الذي يتمرغ في مستنقعات الكحل والعطر الرخيص .. زلزال في أرض الشارع حيث ظلت تركض . لا تشعر بأن الناس كانوا يرمقونها بدهشة .. الناس ؟

أحقاً ان في الكون إنساناً سواي ؟ لماذا لا أسمع حفيف أنفاس أحد ؟ التماثيل الرخامية تتنفس ولا تلهث ؟ زلزال في مدينة قيم منسجمة عربيدة الألوان .. المدينة بعد الزلزال حزينة ومهدمة تتكىء أطلالها على اطلالها ..

تظل متصلبة في الظلمة .. خوفها من شيء ما يشد نظراتها إلى صورة أسعد . لماذا خانها ؟ منحته اشراقة أعماقها .. لماذا علمونا ألا نسجد إلا لمثل أعلى تُنحت تماثيله في غيبوبات مراهقة ؟ لتبقَ الصورة هنا لئلا أسجد بعد اليوم لغير الحقيقة . سأعرّي بقسوتي الرجال جميعاً من زيفهم .. سأرفض كل شيء .. ليس في الحياة تحدّ يستحق رد فعل صادق ..

تظل تخمش الصورة بنظراتها . تكرهها .. وتكره أن تنسى .. لا لن تذهب لاستقبال نادر .. قال لها قبل رحيله :

— أيتها القطة ، فكري طوال الشهر الذي أقضيه بعيداً .. إذا قررت أن تكوني لي زوجة فتعالي إلى المطار لاستقبالي . وإلا فلا تجيئي ..

لن تذهب .. ستترك عملها في الشركة . ستهجره لأنها تعبده . لن يفهم شيئاً . ستظل أبداً قطة المدينة . لن تتعرى أعماقها أمام أحد .. لن تستسلم . الحب سلاح في يد الذين تحبهم يعطيهم القدرة على أن يجرحوها ويخذلوها .. وهي لم تعد تريد أن تخذل ، لا أحد يستحق أن تسمح له بجرحها . يالله ! كيف تنسلّ نظرات أسعد التي لا لون لها من الصورة العجيبة . فتتحسسها مفجعة الرخاوة والبرود .. كم تكرهه ! وكم تكره أولئك الذين يحملون جوعهم في أعينهم ويلتفون حولها ! تنشر شعرها الغجري مع ضحكها وتجابثها اللذيذ . عالم مثير الألوان والأضواء يشدّهم إليها أكثر .. يلذ لها أن ترقب عذابهم المراهق .. عواء جوعهم وحقارة جوعهم وعري جوعهم

أمام برودها .. ملكة النحل تقتل ذكورها .. النحلة عاقلة ..

لو يعرفون .. لو يعرفون تشردها في الشوارع المظلمة . تدفن فيها هويتها .. تتأمل النوافذ واحدة واحدة . تبكي عندما تلمح ظلال نار يحتضنها موقد دافىء .. تود أن تحصبها بالحصى بحرقة طفل يحطم دميته التي طالما توسل إليها أن تنطق . فظلت تواجهه بعينين تطل منهما كآبة باردة لامبالية .

الحب والكراهية يمتزجان في قلبها .. كالموت والحياة .. لماذا لا تستوي الأشياء ؟ انها قوية .. قوية بقسوتها .. قوية بعذابها ..

قطة ما تموء في الشارع بأسلوب إنساني بدائي .. تنفجر باكية بحرقة حقيقية عجيبة بينما هي تردد : أنا قوية قوية ..

تهوي إلى فراشها .. عالم متفجر الذرات في أعماقها .. الرعب . التحدي . الرفض . تحس ان في أعماق رفضها كذباً مكابراً . لم تستطع إلا أن تكون مزيفة عندما تتعامل مع الآخرين . تمرغ وجهها في لزوجة الدمع الحار ثم تستلقي على ظهرها وتظل نظراتها مشدودة إلى صورة أسعد . انها مشوقة لرؤية نادر . لماذا لا تغامر ؟ صورة أسعد تكبر . تغطي الجدار .. ينزلق منها شمعي الوجه طرياً كأكذوبة .. ينحني عليها ببلادة كساعة حاول استرضاءها بذهبه .. من قال انها أحبت ذهبه ؟ .. يطل على عوالم رعبها وهو يقترب .. شفتان ميتتان تلصقان بشفتيها . الدود لزج كريه الرائحة .. مرارة الغثيان تنفجر في جسدها .. تكرهه .. تكرههم جميعاً .. تختنق .. ذات ليلة ستموت هكذا كصرصور في بئر الصديد .. لن يحس بها أحد . قد لا تموت ولكن جسدها في لحظة صدق وقرف من الحياة سيرفض كل شيء .. فمها سيرفض أن يشكو .. لسانها سيرفض أن يتكلم .. سيظنون انها ميتة ، أمها تبكي وتندب والجارة الثرثارة ستجد الدليل على انها كانت مجنونة فعلاً .. سيرمون بها في قبر مفتوح .. النجوم في السماء ستظل تغمرها ببلادة لامبالية كعيني قطة ترثر عند الموقد . الليل سيحنو على رفضها..

سيشفق عليها لأنها لا تستطيع أن تبكي .. وقبل أن تندّي الريح وجهها سيهيلون التّراب عليها، كثيراً من التّراب الرطب. كثيراً من التّراب فوق صدرها .. متعبة .. متعبة .. تكاد تختنق .. لماذا نسوا الصورة معها في القبر ؟ .. أسعد يقهقه مع الغانية .. تفور قذارة فقاعات صابون حمام معطر في ثنيات القبر ..

أسعد ينثني إليها ليضمها .. لماذا يكون الموت بهذه القذارة ؟ ألأن الكراهية والسلبية تملآن نفسها ؟ تقفز فجأة عن فراشها والذعر والاشمئزاز شحنات كريهة تومض من جسدها .. زر النور إلى اليمين .. الظلمة تجلب هذه الرؤى .. سئمت عذاباتها .. كل شيء يتوهج ويحرق أهدابها .. صورة أسعد ما زالت في مكانها .. المكتبة مصلوبة تحتها .. المجلات الملونة مكدسة ، رثّة الأطراف ، كأنها فريق راقصات رخيص .. المرآة فاجرة النظرات تواجهها بصفاء مرهق .. ترى فيها عينين دامعتين . كم هو مريح أن تستعيد قدرتها على البكاء وترى شعراً غجرياً مجنون التمرد ! تهز رأسها فيزداد انسكابه كشلال متفجر الضياء .. انها مغرية محرقة كشمس مدارية صاعقة .. القطة .. لذيذ ان ترى في العيون حقداً لا شفقة .. كم كرهت شفقة الجارات بعد فقدها أسعد .. خطيبها !

تتحسس نعومة رقبتها وصدرها بنشوة نرجسية فخور .. كم هو لذيذ أن تكون جميلة ..

احساسها بالجمال يملأها برغبة في أن تمنح كي تعرف نشوة التلاشي.. ان تمنح يعني انها حية . الوردة الذابلة في الكأس بالقرب منها فاتنة الشحوب ومؤثرة .. رأسها المحني يبعث على الاحترام ... يذكرها باشراقة التعب التي يشع بها وجه المرأة بعد الوضع ، جميل أن يشرق الإنسان بعد أن يموت ، النجوم كلها ، أتراها نساء عرفن نشوة العطاء والتلاشي واستحلن أبخرة تكاثفت في مغاور السماء وظلت أبداً مضيئة رجراجة ؟

نادر .. تحبه .. تريد أن تمنح وأن تغامر من جديد .. تريد أن تنظر إلى النجوم .. في رعشة أشعتها وعد لرعبها بميتة مشرقة . تفتح باب شرفتها وتخرج إليها .. غيوم الشتاء تتغذى بالنجوم وتخرج إليها بالنجوم ، لكن النساء المضيئات بالسعادة كثيرات .. أبداً تتجدد بهن النجوم .. وهي ستنتقي مغارة فيروزية في ركن السماء قرب نافذة نادر لتظل أبداً تمنح ..

تعود إلى غرفتها وقد توردت وجنتاها . يخيل إليها ان صورة أسعد ساخرة لا تبالي ، ترتدي ثيابها . أنفاسها تتسارع مغناجاً نشوى وهي تستعيد بكثير من اللذة أشياءها الصغيرة . الاسطوانة النائمة في ركن دولابها والتي أهداها إياها ذات مرة وهو يقول بلهجة ذات معنى :

– اسم هذه الاسطوانة : تعالي اليوم أو لا تجيئي أبداً .

تبتسم بتخابث وهي تذكر كيف ردت عليه :

– أستطيع أن أجعله يردد ذلك كل يوم .. كلما اردت .. يكفي أن أضع ربع ليرة في ثقب آلة الاسطوانات وأديرها .. ربع ليرة تشتري حبيباً في مدينتنا ..

تنتهي من ارتداء ثوبها .. بعد لحظات يأتي سليم ، يجب أن تسرع .. كم هي بشوق لرؤية نادر .. السد قد تهدم .. المياه تهدر وتكتسح كل شيء ... أناملها وأهدابها ومسامها ونزق حركاتها تصرخ بأنها له .. آلامها وتحديها ورفضها وماضيها تنصهر في صرخة متوحدة محمومة فيها الكثير من بدائية صرخات الغابة .. تحبه .. ستكون له وحده .. أبداً كانت تبحث عن حضارة . عن دفء معتق قديم .. اصرارها على البحث هو الذي دمغها بأصباغ العبث ، ستسلم مغاورها وشطآنها وجزرها المرجانية لغيمات حارة وردية تسكبها لمسات رؤوس أصابعه وشفتيه ...انها هاربة من قبر كراهية وحقد إلى حيث تولد نجمة ..

لماذا لم يصل سليم بعد ؟ نسيت أن تصفف شعرها .. نادر كان يكره

خصلها المغناج ، وتهتكها المثير على الجبين .. يحيلها إلى قطة .. لا أحد يملك قطط المدينة .. وهو يكره مدنية القطط المزيفة . قال انه يبحث عن حضارة .. تتناول شريطاً أسود وتشد شعرها إلى الوراء .. لماذا تأخر سليم ؟ انها الثامنة .. لا تريد أن يجد نادر نفسه وحيداً في المطار .

كأحلى سيمفونية عرفها ليل المدينة تسمع هديل بوق سيارة سليم ، تقفز على السلم راكضة كأنما تلسع درجاته قدميها . ترتمي في السيارة إلى جانب سليم وهي تلهث فرحة . يحييها ويتأملها بينما هو يدير المحرك .. للمرة الأولى يراها بلا كحل . بلا ألوان ، بلا اثارة مفتعلة . امرأة من صلب الحقيقة وصفاء الخيال . يدهشه منظرها .. تقول له بلهفة :

— اسرع يا سليم ، لا أريد أن يجد الأستاذ نادر نفسه وحيداً في المطار ..

سليم يضحك ويقول : « انه لن يكون وحيداً .. ستكون معه عروسه الأجنبية .. لقد تزوج هناك .. ألم تسمعي بذلك ؟ »

— من قال هذا ؟ ..

— وصلتني منه رسالة قبل سفري إلى بيروت يخبرني فيها بذلك ويطلب مني كتمان النبأ لأنه يريد أن يحتفظ به كمفاجأة .. لكن الخبر منتشر في المدينة في شبه اشاعة .

— لم أسمع بذلك إلا منك ..

— إذاً فأنت آخر من يعلم ..

تجمد . نادر لن يعود . أبداً لن يعود . لقد مات . ستشتري لقبره باقة ورد . يريد أن يتشفى منها . يريد أن يرى وجهها وهي تفاجأ بعروسه .. كل منهم على استعداد لأن يدفع غالياً ثمن دمعة في عيني القطة يتشفى بها . دمعة واحدة .. وهي لن تبكي . تحول نظراتها إلى الشارع المضيء الذي يخترقانه . الأشياء تتزلق في عينيها بسرعة . بائع أحذية . عجوز يبصق . بائع ورد . تهتف بدلال :

– قف يا سليم .. أريد أن أشتري باقة ورد أقدمها لعروس المدير . انك عديم اللياقة .

يقف . يهبط ليبتاع لها باقة . تبقى وحدها في السيارة يخيل إليها انها ترى نادر يهبط من الطائرة وفي طيات معطفه روما تحترق .. كان يبحث عن حضارة ليدمرها .. لم تتعرّ أمامه .. كبرياؤها لم تمس .. أحقاً انها لم تمس ؟ .. زبد في صدرها .. التحدي .. الخيانة .. الكبرياء .. الزيف . نادر غيمة لم تمطر .. من قال انها عطشى ؟ ربع ليرة في ثقب الآلة يشتري حبيباً .. فقاعات صابون حمام معطر تفور في حلقها ..

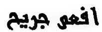
في صدرها .. تريد أن تشهق.. تشكو .. لمن؟ لا احد .. لا تستطيع .. لا شيء سوى غيمات عطف لا تمطر ..

يدها تمتد إلى الشريط الأسود وتنزعه من شعرها.. قليل من الكحل .. قليل من الألوان .. ياقة ثوبها ضيقة تزعجها . تحلها .. القطة تولد .. ليس في عينيها دمعة ، لكن عيون القطط جميعاً ندية تلتمع في الظلمة ..

سليم يعود ومعه باقة قبيحة لكنها كثيرة الألوان ضخمة الحجم . هذا ما طلبته . السيارة تتحرك . من جديد . القطة تثرثر .. تضحك .. سليم ينظر إليها وظلال حمر تعوي في عينيه ، بينا هما في طريقهما إلى المطار . القطة ترقبه ببرود عنكبوت تحوم ذبابة حول شباكها ..

بعد قليل تهوي الذبابة وتتخبط .. ستضحك كثيراً ..

أضواء المطار تلوح من بعيد .. لا تراها لا ترى سوى صورة أسعد المعلقة في غرفتها ، كريهة ونتنة ، وإطارها خشبي وكئيب كالتابوت ويخيل إليها انها تسمعها تقهقه بسخرية همجية التمزق .. لأن ربع ليرة في ثقب الآلة يشتري حبيباً ...



ضمّها إلى صدرك أكثر يا زوجي الوفي .. ضمها إليك ، فالموسيقى حارة مغرية وجسدها ناعم الملمس كأفعى الجحيم . وأنا هنا في الركن المعتم زوجتك الباردة التي اعتدت عيونها البلهاء ... واعتاد أصدقاؤك صمتها وسكينتها ... وجلستها الذليلة كقط الموائد .

راقصها بحرارة كما كنت تراقصني أيام خطبتنا منذ خمسة أعوام ... واهمس في أذنيها بعباراتك السخية التي اعتدت تكرارها — دون أن تعي ما تقول — كلما ضممت إلى صدرك غريمة جديدة تعذبني بها ... قل لها « أحب عبير شعرك الأسود ... وأحب عينيك الكستنائيتين » عفواً .. بل قل شعرك الأشقر وعينيك العسليتين .. لا تخطىء (بحكم العادة) وانس أن عشيقتك التي سبقتها كانت سمراء .. يا للضجيج .. يا للموسيقى الصاخبة .. يا لعذابي المريع .. الجميع يرقصون ويقفزون .. وأنا أيضاً كنت أرقص منذ أعوام في حيّنا الفقير .. ويوم عينت مدرّسة للأطفال تجمّع الأهل والأصحاب في فسحة دارنا فرحين مهنئين .. وانفلتّ أنا بين الجمع أرقص بعفوية وصدق .. وأتلوى ببراءة ولذة فطرية .. كنت أحسّ ان الموسيقى تتسلل إلى جسدي وتحركه .. وانني أعبر به عن رغباتي الخرساء .. وما كان أكثرها ، رغباتي الدفينة بسبب خجلي .. لم أجرؤ قط على النظر في عيني شاب حتى حسان .. لم أقل انني أحبه إلا بعد زواجنا ..

يا للقصر المزخرف المزيف كالتابوت المنقوش .. ما الذي رمى بي في هذا المكان المريع ، بين هؤلاء الذين يقفزون ويتصايحون بوحشية في عيد

ميلادي ؟ وهذا الرجل .. زوجي .. لماذا يضم إليه هذه التافهة الملونة .. ويدفن رأسه في شعرها الأشقر .. أشعر بأن الضجيج يمتصّني . أضيع فيه وأتلاشى . لم أعد أستطيع السكوت ... انني أصرخ بأعلى صوتي : « أوقفوا هذه الجلبة والفوضى أيها الحمقى .. أخرجوا .. خذوا معكم رجلي المزيف ودميته الجديدة .. انني أكرهكم .. أكرهكم .. لست منكم وليس باستطاعتي أن أكون .. أنا بلهاء فقيرة أريد أن أعود لطلابي الصغار » . انني أصرخ وأصرخ وأكرر .. ولكنّ أحداً لم يلتفت إليّ . لم يسمعني أحد . فأنا خرساء خرساء كالصخر .. كالدمية .. حبالي الصوتية تالفة مهترئة .. كالأعشاب البحرية .. كالهوام .. وأنا فقدت قدرتي على التعبير بالوسائل المعروفة .. ولكنني — للأسف — لم أفقد بعد القدرة على الألم . إن لي من الآلهة صمتها .. ولكنني لم أكتسب بعد قسوتها وجبروتها ...

ضمّها إلى صدرك أكثر يا سيدي .. فزوجتك اليوم صامتة كالقبر .. لن تضايقك ، حتى ولا بمجرد العتاب .. ليس بمقدورها أن تسألك بعد اليوم لماذا صممت على النوم في غرفة منفصلة عنها بعد الزواج بأسابيع ، ولن تسألك بحرقة كيوم خنتها للمرة الأولى : « لماذا تفعل ذلك يا حبيبي .. لماذا ؟ » ..

وتلك الفاتنة التي اخترتها اليوم لتكون جلادي .. لتراقصها أمامي وتلتصق بها بحرارة مشبوبة ، ليست أجمل مني .. ولكنني بلهاء سيئة التصرف .. وهي تعرف كيف تتثنى بجسدها اللدن وكيف تهمس بدفء مثير .. وتعرف كيف ومتى تعطي .. وتعرف كيف تنتزعك مني لحين .. ريثما تنتزعك منها أخرى .. وأنا هنا .. العين البلهاء التي لا ترى ولا تدمع .. وحيدة كالموت .. متعبة كالأنين .. وأعود أصرخ من جديد : « أنا هنا أيها اللاهون .. ألا تسمعون نحيبي الأخرس وصراخي المكتوم .. أنا هنا في الركن المظلم أحس بكم .. وأراكم .. وأتألم بوحشية وجنون .. أنا هنا

ألا تسمعون .. أنا أنثى . ألا تشعرون ؟ » ... لم يسمعني أحد فأنا خرساء .. ولكنني لم أفقد أنوثتي وغيرتي .. لم أفقد هذا كله يوم أصبت بمرض الحبسة منذ عام .. فاسترخت حبالي الصوتية وتقلصت .. وأضحيت كئيبة صامتة كالجثة .. كالحائط .. كأرض الغرفة التي يضربها زوجي الآن برجليه ..

ضمها إلى صدرك أيها الزوج القاسي ... تحسس كتفيها المثيرتين .. انهما ليستا أشد نعومة وامتلاء من كتفي .. ولكنها تعرف كيف تبرز جمالها .. أما أنا المحتفى بعيد ميلادها .. فما زلت هنا في الركن البارد .. ملتفة بشالي الأبيض كالكفن .. شالي الأبيض ، أتذكره ؟؟ هدية خطبتنا .. يوم حلفت لي على الوفاء .. وقلت لي إنك تحب عبير شعري الأسود .. وصمتّ أنا يومئذ مع انني لم أكن خرساء . كان الصمت المقدس من عاداتي والخجل دائي المستحكم .. حتى عندما كنت توصل أختك الصغيرة إلى مدرستنا بسيارتك الفخمة لم أكن أجرؤ على التأمل في وجهك ، بالرغم من إعجابي الشديد بك ، وقد أحببتك دائماً .. بهدوئي الظاهري وأنوثتي المشبوبة الخفية .. لم أقل شيئاً .. لم أرفع نظراتي قط إلى وجهك .. على الرغم من اهتمامك بي ومحاولاتك المكشوفة لإغرائي .. كنت أتمنى أن أضمك إلى صدري وألهب وجهك بأنفاسي .. ولكنني لم أفعل .. كنت خجولا وجبانة .. وكنتَ قد اعتدت الحصول على كل امرأة تعترض طريقك .. فلما وجدت انني الوحيدة التي لم تنجح فيها أساليبك التقليدية .. ظننت أنك أحببتني ، مع ان احساسك لم يكن سوى رغبة ملتهبة في الحصول عليّ كما أدركت بعد فوات الأوان — وتمت خطبتنا .. وسماني أهل الحي سندريلا . وتم زواجنا الفاشل وتركت عملي .. وانضممت إلى زمرة العاطلين بالوراثة ..

ما زالت الموسيقى تعزف بحرارة ، فضمّها إلى قامتك الفارعة يا سيدي وغيّبها في صدرك العريض . بالرغم من النيران التي تأكل عيوني ، لا أستطيع إلا أن أرى انك مدهش .. أنيق .. جذاب ووسيم .. رائع المظهر

كقبر رخامي براق . يتلألأ تحت أشعة الشمس بينما تزحف في أعماقه المتعفنة ديدان نهمة وحشرات مشوهة مرعبة تنهش كل جسد تحتويه . ديدانك يا سيدي نهشت من نفسي طيلة خمسة أعوام .. من شبابي وبراءتي .. من أحلامي التي دفنتها في قلبك النتن .. ديدانك يا سيدي أتت على البقية الباقية من صوتي وظلت تنخر في حنجرتي بشكل مرض أسماه الأطباء (الحبسة) .. حتى سكت .. إلى الأبد .. ومع ذلك ظللت حية صامتة كتمثال معذب هنا في الركن المعتم ..

خرساء أو لا خرساء .. لم يتغير الحال يوماً منذ زواجنا .. الدمى التي كنت تتلهى بتبديلها ، لم تكن أنت نفسك تهتم بحديثها .. كنت دائماً أتفه من أن تحب . أضأل من أن تشعر . وأحقر من أن تفهم ... كنت تجهل دائماً أن الحب يتطلب مقدرة معينة على الاحساس وعمقاً وإدراكاً .. وأنت لم تحب قط ولن تحب أبداً .. وأنا قد أدركت هذا كله وأخليت الميدان .. وهاانذي اليوم أتوقف عن حبك .. لماذا ؟ .. لماذا أرتعش وأخشى هذه الكلمة ؟ .. لماذا يدمي قلب المرأة أن تعترف بفشل حبها ؟ .. لماذا يأكل هذا الفشل من كرامتها وأنوثتها ؟ .. أنا خاسرة .. خاسرة . خاسرة : وحيدة . أصرخ ضائعة ولا أحد يسمعني . أتحدث بصوت مرتفع يموت قبل أن يترنح على شفتي . فأنا خرساء ولكنني ما زلت امرأة .

وتلك التي التقطتها من أسواق الغرور .. تلك التي تحمل بركة المايونيز والكافيار ليست امرأة .. ولكنها خرساء ... لم يخطر لها أن تستعمل لسانها قط إلا في تذوق الكافيار — والمايونيز ... وفي ضرب المواعيد على الهاتف .. وفي إلقاء تحية الصباح على أمها حينما تستيقظ في الثانية عشرة ظهراً وتقول : « هاي مام » وحين تخرج بعد العاشرة مساءً « لأعمالها » وتقول : « باي مام » .. وحينما تقول لسائق سيارتها إذا قبّلها أو إذا أسرع في طريقه « ستوب جوني » .. وعدا ذلك . فهي خرساء .. أما أنا فقد كافحت طويلاً منذ

مراهقتي لأساعد أبي .. وطالما رددت جنبات مدرسة الأطفال صياحي وهتافي . وتوجيهاتي ودروسي وضحكاتي ... والأغنيات البريئة التي كنت أعلمهم إياها .. لا .. لست أنا الخرساء .. إن صوتي حي في حناجر عشرات الأطفال الذين يرددون أغنياتي .. ويتسامرون بحكاياتي .. صوتي حي في قلوبهم ... حيث غرسته منذ أعوام وتركته هناك لتزيده الأيام صلابة وخلوداً .. صوتي حي في نفوسهم حيث وهبته لهم أغنية صافية تنبض صحة ، ونشيداً مشرقاً مطرزاً بالشباب والضياء ..

ويوم تزوجتك يا سيدي تركت عملي .. حملت معي حنجرتي الممزقة المستنفدة وقلت هذي واحتي .. ويا لواحة الجحيم ! يا لسوقكم الرهيبة .. سوق العبيد ! لم يخطر لي انني كنت رخيصة لديك .. فأنا بلهاء وفقيرة يا سيدي .. ولكنني امرأة .. وأنا قد انتهيت ولكنني لن أمضي بالبساطة التي تتصورها ..

ضم شقراءك إلى صدرك فقد بدأت تتعب ... ضمها إليك بعنف وقوة ... عذبني .. اسحقني .. فقد بدأت أجد لذة في عذابي ما دام يحررني من بقايا حبك .. لقد كشفت لك عن صدري فاضرب بقسوة .. فما زال في القلب دفقة دم ورعشة .. وما زال في الأعماق طيف حنين .. وما زالت طاقتي على التحسس بالعذاب هائلة .. وأنا الآن حائرة .. ضائعة .. ولكنها تضحك بين ذراعيك لا أسمع إلا ضحكتها وأنت تداعب رقبتها بوجهك وتدغدغ جسدها بين يديك بعبث ونهم .. رفاقك يحدقون إليّ بشيء من الرعب اللذيذ وبكثير من الإثارة . انهم يطالبونني بمشهد هائل .. يودون التلذذ برؤية عذابي .. يريدون قصة تلوكها ألسنتهم .. (ينتظرون مني أن أنهض وأقترب منك وأحاول انتزاعك منها ، حيث ترفع يدك القاسية وتصفعني .. وتعود إلى رقصك بكل برود بينما أنا على الأرض كتلة من اللحم المنهوش تدوسها الأقدام) ..

لذيذ هو ذلك الحقد الأسود الذي يتسلل إلى أعماقي .. ورهيبة هي تلك الأفعى التي تستيقظ في نفسي .. تنفث سمّها في أنوثتي وكبريائي .. وشرسة هي تلك النمرة التي تتثاءب في قلبي وأظافرها الحادة تتخبط في الفراغ .. بحثاً عن فريسة .. اني امرأة غيرى .. مزيج من أفعى ونمرة .

ضمّها إلى صدرك أكثر .. احمها مني فإن خدها يغريني بالصفع ... الخد الذي تتحسسه بشفتيك الآن .. وتغمره بقبلك السريعة اللاهثة .. أهون عليّ أن تنتزع أظافري ، أن أنتزعها أنا بأسناني .. أن أنهش ذراعي وأغرس المسامير في عيوني من أن تهان كرامتي وأنوثتي هكذا .. أمام الجمع الشامت .. أمامك أنت ..

ضمّها إلى صدرك ، فقد بدأت أجد لذة وحشية مؤلمة وأنا أرقبك وأنت تخطىء .. انني أمسك بمقعدي بشدة كي لا أنهض وأبصق في وجهك .. باشمئزاز مدمر .. انني أمقتك . هكذا .. فجأة .. أشعر انني أمقتك .. مزّق الحنايا التي نبضت ذات يوم بحبك .. لطّخ كل ما في نفسي بالدم والعويل حتى لا يبقى شيء يهتف باسمك .. أيها الوحش .. أغرس أنيابك في صدري .. وأنا فقيرة .. بلا صديق .. وأنا خرساء .. لا أستطيع أن أصرخ .. لن يسمع أحد عذابي اللاهث .. لن يتلذذ بدماري إنسان .. ضمّها إلى صدرك وأغرس مديتك في قلبي حتى آخرها .. لا .. لا تدعوا الموسيقى تخفت ، فقد اعتادت أذناي العويل .. وألفتا اللحن الجنائزي الكسيح الذي على أنغامه ترقصون ... إن الأفعى في أعماقي بدأت تتلوى وتمدّ جسدها في جسدي .. اضحكوا .. انظروا إليّ .. لم أعد أحس بشيء .. انها تنثر شعرها الأشقر على كتفيك .. وها هي ذي يدك قد تسللت إلى الخصر النحيف لتطوقه .. وشفتاك تأكلان من الأذن الصغيرة وتهمسان ببعض الكلام .. وأنا أعرف ماذا تهمس بأذنها .. انك تقول لها « تعالي يا حبيبتي إلى الشرفة فالقمر بديع كوجهك المشرق » تماماً كما قلت لي يوم زفافنا .. لم يخطىء

ظني فقد خرجتما إلى الشرفة .. لا ريب بأنك الآن تقبّلها .. شفتاها تتململان وتتأوهان بين شفتيك .. وأنا هنا زوجتك البلهاء .. ما زلت في الركن المعتم ، وشالك الأبيض كالكفن على كتفي وعنقي .. أود أن أصرخ .. أن أشكو . أن أقول شيئاً .. لا أحد يحس بوجودي .. وكلماتي الملتهبة تنطفىء في حلقي الدامي .. حتى صراخي ، مبحوح أخرس ، مخيف ، كحشرجة وحش ذبيح .. كأنين إنسان مشوه محترق .. الموسيقى تعول لحن (التابو) .. والعيون ترمقني .. أشعر إنني سأنفجر وأتطاير في الجو هباء ورماداً إذا لم أفعل شيئاً .. إذا لم أعبر عن عذابي .. إذا ظل البركان مخنوقاً في صدري واللسان حبيس الضياع .. تتململ الأفعى في أعماقي وترفع رأسها بعنف .. فجأة .. أنهض عن مقعدي وآلاف الصرخات البدائية تعول في دمي .. وأنا خرساء ولكنني الآن امرأة ، مدمرة .. طاقة عجيبة تتبعثر في كل جزء من جسدي .. انني أسمع صدى لطبول وثنية في معبد ضائع في البراري .. صدى بعيداً يعلو ويعلو بعدما تنعكس الأصوات على المذابح الحجرية المصبوغة بالدم .. دم شبان أقوياء . أحس أن رائحة البخور تعربد في صدري .. وان الأفعى بدأت تتلوى .. وإيقاع الطبول يسرع ويسرع .. صوت ناي بعيد يتسلل إلى ذراعي وصدري ويلف جسدي المرتعش كله .. ولكنني ما زلت واقفة .. جامدة .. وقد بدأت الأفعى تثور وتتمرد .. ان يداً تتسلل لترمي بالشال إلى الأرض وان قدماً ترتفع وتدوسه قبل أن تخطو إلى الأمام ببطء لذيذ . شالي .. هدية الخطبة .. كفني .. تحت أقدامي .. لا .. يجب أن أجلس .. اني بلهاء وخرساء .. وتصرخ الأفعى في داخلي . ولكنك امرأة جريح .. انني أخطو إلى الأمام وأحس أن لحن الناي الذي يتأوه ويتلوى قد تسرب إلى جسدي وأن الأفعى بدأت ترقص بجبور غريب ..

وفجأة .. يلمع في عيني بريق شيطاني عجيب .. تمتد يدي بسرعة لتفك قيود شلالات من الشعر الأسود تنهمر بعنف على كتفي العارية

وتتناثر بفوضى غريبة .. تمتد يدي مرة أخرى لتخلع الحذاء وترميه .. يخيل إليّ أنه يصيب وجه زوجي . أتلذذ بهذا الشعور .. الكل يحدق إليّ بذهول وخوف .. الموسيقى لا زالت تعزف .. أشعر أنني جميلة . جميلة بثورتي وتمردي وجميلة بالشعاع الشيطاني المخيف في عيني .. بدأ جسدي يتلوى ويتمايل .. والأفعى تطرب وتترنح . كل جزء في جسدي ينطق بفصاحة خارقة مثيرة .. أحس انني لم أعد خرساء .. وأن عيون الرجال تلتهمني بنهم .. وأن عيون النساء حاقدة .. مدهوشة .. كيف تحرك التمثال ؟

كيف نطق الألم ؟؟ .. إنني أنضح عذابي حبات من العرق أحسها تسيل على جبيني .. الأفعى تتأوه بداخلي وأنا أرقص بوحشية بدائية .. بحرقة .. بلوعة .. بعنف مذهل مدمر .. بفجور متمرد .. صدري المرتعش يعلو ويهبط .. ثوبي يكشف ساقي كلما درت ودرت محدثة أياهم عن الدوامة التي تسحقني .. انني أنطق بأصابعي وبنهدي وبشعري المتطاير .. أنطق بجسدي الذي يتمايل ويتوجع .. الأفعى نشوى .. والفراغ حولي يضج ويهذي .. نظرات الجميع المحمومة تتحسس جسدي بوله وجوع .. وفجأة تتعلق نظراتي بك يا سيدي .. أراك تحدق إليّ برغبة جامحة مريرة .. كالكلب المسعور .. ولكنني لن أبالي بك .. أظل أرقص . أفرغ عذابي رقصاً .. أفرغ حقدي رقصاً .. أصرخ وأشكو ، أتأوه وأنتحب رقصاً .. لقد استرحت .. نامت الأفعى بسلام .. واستيقظت النمرة .. خرست الموسيقى .. وانتهت رقصتي .

يلتف الجميع حولك يهنئونك بزوجتك الحسناء التي استعادت مرحها .. أعرف أنك تتعجل انصرافهم .. وتفكر في الوليمة التي لم تخطر لك ببال . بالمرأة الجديدة التي تقمصت زوجتك الفقيرة الخرساء .. بالجسد الذي ستنهشه الليلة لترميه في الصباح .. أبتسم لك بسخرية مومياء .. تتحرك النمرة في أعماقي ثائرة وتكشف عن أظافرها .. الجميع ينصرفون .. أصعد إلى

غرفتي تتبعني كالثور الهائج .. كم هو لذيذ أن أرى الجوع المحموم في عينيك .. الألم المراهق في وجهك ، ولكن زوجتك الخرساء الذليلة ستنام منذ اليوم فصاعداً وحدها .. راضية .. متشفية .. ماذا ؟ .. أتقرّب ؟ لا يا سيدي ، لن تنهش بعد اليوم .. سوف يأتي الكثيرون .. وسيظل باب مخدعي موصداً .. وسأظل خرساء .. غامضة .. كأبي الهول .. لن أنطق إلا حينما أرقص لأثير عواء الذئاب .. ولأدمرك يا زوجي الطفل الذي اعتاد أن يحصل على كل دمية يشتهيها .. واعتاد تحطيم الدمى ..

أخرج من غرفتي يا سيدي ، فقد بدأت النمرة تشرع أنيابها وبدأت يدي تدفعك من دربي .. ما أحلى الذهول والحيرة والعذاب في عينيك . ما ألذ رائحة الحريق من صدرك ! . أجل .. أنا زوجتك الخرساء الجميلة .. أطردك من مخدعي وأوصد بابي ..

ها أنذا الآن وحدي .. انني أغمض عيني لأنام . أحس أنّ في حديقة القصر أفعى أحاط بها خطر مبهم من كل جانب .. إنها تغرس نابها السامّ في بطنها ، إنها تفرغ في نفسها كل ما لديها من ذيفان مهلك .. إنها تجمع بعضها وتنطوي على نفسها .. تنام ..

وأجمع ما بقي من نفسي .. وأنطوي على حقدي وسمّي .. أحاول أن أنام .. لا أستطيع .. أحاول أن أصلي .. ولكني .. خرساء ..



مغارة النسور

الظلمة تتخبط في الدروب الوعرة . الصخور ترتمي في طريقي الواحدة تلو الأخرى . الأشجار تعدو نحو الوراء . والأشواك تزحف تحت أقدامي .. السفح ينسل صوب تل القلعة المهترئة ، حيث خلفت الضابط الأعرج ثملاً ، ومئتي صندوق رهيب في القبو ، وعشرات الخنازير والذئاب ..

ما زلت أعدو مجنونة السرعة ، الرياح القارسة تضرب وجهي ، المطر المتدفق يغسل القمة الشامخة التي تقترب مني وأنا أشق ذرات العتمة بصدري المرتعد ، حيث أخفيت قطعة غضروفية يتدلى من أحد طرفيها قرط ذهبي بشكل هلال أعرفه جيداً .. وكلما تعثرت مددت يدي لأتحسس القطعة الغضروفية بحنان ذبيح .. بحقد مجنون مدمر .. نظراتي نار تحرق الظلام .. تخترق الصخور وتدور في المنعطفات .. تتخطى وعورة الجبل وتلتقي بالقمة الزاحفة نحوي .. وتنتهي عند باب مغارة ضائعة بين أعشاش النسور في ذرى الأوراس حيث تتمسح بزوجي حنفي ، تنبئه بأنني ههنا ، أصارع العاصفة لأصل اليه وإلى اخواني ، والتماع البرق يحرق أهدابي .. تنبئه بأنني غادرت سيدي الضابط الاعرج إلى الأبد ، فقد أحسوا بي هذه المرة ، وأدركوا ان « بسمة » خادمتهم الجزائرية الصامتة التي انتزعوها من زوجها في القرية المجاورة ، بسمة تتجسس عليهم وتتظاهر بالصمت .. بسمة تنقل ما يتدفق من فم الضابط الاعرج الثمل ..

— زجاجة اخرى يا بسمة .. أريد أن أحتفل بوصول المئتي صندوق ..

— أمرك يا سيدي ..

أمرك يا سيدي وأطير في الدرب اللاهث ، لأنبئهم ان ثمة مئتي صندوق من المتفجرات ترقد في أقبية قلعة الضابط الاعرج .. مئتا صندوق لابادة القرى الثائرة حول قلعته المهترئة .. مئتا صندوق تزرع الحديد في أحشاء الاطفال .. تبصق الدخان في رئات النساء ، وتحصد البيادر .. مئتا صندوق احتفل بوصولها منذ ساعات .

— يا بسمة زجاجة خمر أخرى .. ألا ترين انني عطش ؟

— أمرك يا سيدي ..

أمرك يا سيدي والحقد يتلوى في أضلعي ويكاد ينهمر .. أمرك يا سيدي والثورة تنتفض في أغواري مجنونة التفجر ، كلما وقعت عيني على علبة دامية إلى جانبك ، انسكب من احد أطرافها خيط رفيع من الدم واختلطت فيها قطع غضروفية ، وينغرس في مقلتي وهج قرط ذهبي يتدلى من احداها ...

— أسرعي يا حمقاء بزجاجة أخرى .. ألا تسمعين ؟ ..

— أمرك يا سيدي ..

وألعب دوري بمهارة ، والأعرج راض عن خادمته بسمة .. انها أفضل من النساء العشر اللواتي اشتراهن بعشر بقرات مسروقة ، بينما يرقد رجالهن في أقبية القلعة بين السقف اللاهث والديدان النهمة ..

أمرك يا سيدي الثمل !

وأكاد انقض عليك .. انتزع أذنيك بأسناني .. أمزق وجهك بأظافري .. أطبق على رقبتك اللزجة الطرية كضفدع مستنقع دبق .. وأظل أضغط بقسوة ، بحرقة ملتاعة ، وأنفاسك المخمورة تضرب وجهي كالنسيم الذي يهب عن جيف كلاب مهترئة .. الزبد يتدفق من فمك ، يغطي وجهك .. وأنا أضغط .. ذعر رجل بلا رجولة وتوسل جبان بلا كرامة يتعانقان في عينيك .. يفيضان منها ويضيئان في الزبد الراغي على فمك اللاهث كفوهة منخر

ثور مجهد .. وأظل أضغط .. ويوقظني من أمنياتي شخيرك الثمل ، وصوت تحطم القدح الذي سقط من يدك المخمورة على الأرض ..

اقترب من الصندوق .. أتناول منه قطعة غضروفية تدلى منها قرط ذهبي على شكل هلال .. أدسها في صدري .. واللوعة المدمرة تنضح من مسامي ..

وأتركه يحلم بأطلال المدن وأنقاض القرى العزلاء وأطمار الخيام .. والرعب الحزين يتأوه أخرس من الأقبية المتعفنة .. والطيب يفوح من جثث اخوتي .. متنا صندوق في القبو . يجب أن أصل .. الرعد يبتلع لهثاتي المجنونة ، والمطر يعانق رماد الطيب في المنحدر .. وأنا أعدو بركانية التدفق .. لا أسمع سوى هدير الدم تحت الرمال . لا أشعر بنيران الرشاشات التي وجهها الأنذال إلى الجبل الذي أتسلق .. إلى حيث هربت من قلعة الدمار .. لا أدري إن كان أحد يطاردني أم لا .. لا أسمع صوت الرصاص ينهمر حولي .. لا شيء يهمني .. لا أرى سوى مغارة النسور تتمطى في حضن الجبل .. مغارة النسور تناديني .. تسألني عن أخبار القلعة .. عن المعدات والصناديق التي تصل إليها من كل حدب . عن الشبان الذين جاءوا يحاربون دون أن يفهموا معنى الحرب .. وأنا ما زلت أعدو مجنونة الاندفاع .

صوت حاد يخترق أذني .. نار مبهمة قد اشتعلت في كتفي اليمنى .. ذرات الحريق تنسل في عروقي .. والنار .. ولم أخش النار وأنا كتلة جمر ملتهب تندفع نحو القمة ..

سائل بارد يختلط بالمطر ويغسل صدري وذراعي .. إنني متعبة .. أفاعي الألم تتلوى في كتفي وتشتبك مع شعري في ضفائر من عذاب .. يجب أن أركض .. أن أظل أركض . الألم المرهق يدق طبوله في رأسي فيسكرني دويه وأكاد أهوى . جرحي غزير التدفق .. الجدول يئن بجانبي ، والصخور بدأت تبطىء في ارتمائها .. السفح ينسل بتكاسل نحو السهل ،

والقمة تتحرك بهدوء ممزق نحوي .. ماذا حدث ؟ ..

ما زالت مغارة النسور بعيدة ، تخرج من فوهتها أبخرة ضبابية الحمرة ، ورائحة بخور وطيب ، وألحان ثائرة الحزن مخنوقة اللهاث ..

ما زالت مغارة النسور تلوح بعيدة في الذرى ، لكنها تضيء ! .. وأنا أتسلق النور .. أتلوى مع خيوط النور .. أزحف بين أسلاكه .. أرتعش مع تموجاته .. وأود لو أذوب .. أفنى في سفوح الأوراس .. في ذرى مغاور النسور .. والدفء الكاوي يدمي كتفي .. وأنا كتلة من حقد وعذاب متفجر .. أدب في الدرب المظلم ..

— « أمرك يا سيدي » ...

ثلاثة أعوام وأنا أقول للبعوضة العرجاء : أمرك يا سيدي ! ثلاثة أعوام وأنا أحمل له زجاجات الخمر ليشرب نخب حيتان الأطلسي ! .. ثلاثة أعوام وأنا أشهد قراصنة فرنسيين يقبضون ثمن صناديق معبأة بالقطع الغضروفية .. بآذان اخوة وبنات لي ..

وأمدّ يدي الدامية لأتحسس الأذن المدفونة في صدري وأرى الربيع يرقص في عيني ابنتي .. وأراها تلعب في أحد أزقة القرية اللاهثة بالحريق .. وأراها مرمية قرب دميتها المحطمة . مغروسة في الأرض بحربة مدببة .. رجل أزرق البياض ينحني بسكينه على الرأس المعول .. ينهض عنه بعد ثوان وفي قبضة يده أذنان داميتا الدفء ، يتألق فيهما قرطان ذهبيان بشكل هلال زينت بها الأذنان الحبيبتان ذات ليلة . ثم يضعهما باهمال في أحد جيوبه ، يتلمظ بحقارة وهو يتخيل العقد الماسي الذي سيهديه لغانية تدب في ظلال السين النتنة .. ثم يقطب حاجبيه باحثاً عن مئة جزائري أعزل .. مئة طفل أو امرأة .. عن مئتي أذن تدفع له مدينته ثمنها .. ليزين صدر غانية السين باللآلىء ..

(زجاجة خمر أخرى يا بسمة .. أريد أن أحتفل الليلة ..

ــ أمرك يا سيدي ..)

ستدفع غالياً ثمن كلمة سيدي ! ساعة تزلزل القلعة وتثور المتفجرات .. ويتناثر رأسك الأجوف في فضاء الليل ثم يستقر فوق كوم من الآذان المقطعة ... ثلاثة أعوام وأنا أرسم الذل الصامت على وجهي ، كي أنبىء اخواني بأفكار جهنمية الحقارة ... حتى الليلة .. حينما التمع القرط الذهبي في زاوية العلبة الدامية . كادت الدمعة تطفر من عيني .. لكنني جمدتها فجأة .. أنا لا أبكي .. قد أمزق .. قد أعذب بالكهرباء كما فعلوا بأخي في زاوية القبو الطحلبية .. وقد اشوى في الفرن حية كالفتى الذي رفض أن يتحدث عن مغارة النسور .. لكنني لا أبكي .. ماذا لو ماتت ابنتي ؟ .. كل يوم تموت ابنة لي في السفوح . لا أحد يموت هنا .. لا أحد يبكي .. كلنا نحفر قبوراً للقراصنة ..

بحار رمالنا سئمت القراصنة .. بحار رمالنا تتمطى .. الدم يهدر تحت ذراتها ، النور يتأوه في الصخر ويود لو يتفجر .. الشمس تتسكع متفججعة وتود لو تحرق .. الزلزال يتلوى هائجاً ويود لو يدمر .. المعاول ارتفعت في السواعد ، وعما قريب تهبط في أحشاء متعفنة بالخمر والخنازير .. القلاع المهترئة ستهوي ، والأقبية المتعفنة ستغور .. وأنا ما زلت انسل بين أضواء مغارة النسور .. أعدو نحو مغارة النسور .. منارتي التي تغمز لحقدي في الظلام ببراءة متمردة ... تهمس مع النسيم فيجيء النداء خائر القوى .. ويجعل مسام جسدي تتلذذ بالسائل البارد الذي يرسم ورائي على الرمال النشوى خطاً أحمر من لهيب .. الريح تعوي وتعانق اللهيب المتأجج .. وأنا أحمل جرحي وأزحف به فوق الصخور التي تمزق وجهي .. فوق الأشواك التي تنغرس فيه فتدميه .. وأظل أزحف والمطر المتدفق يعانق الرمال .. وأنا أتعثر .. أنزلق .. أتأوه .. لا أشعر بشيء .. لا أرى شيئاً سوى مغارة النسور تغمز من بعيد .. وحنفي هناك بقامته الفارعة ، وبحار النبل في عينيه ،

وتيارات رجولة خفية تتمسح بجسده .. حنفي بين اخوانه في المغارة .. يمسحون بندقية وجرحاً ، ويتسللون أشباح رعب تصعق الغرباء قبل أن تلمسهم .. كم أنا بشوق لرؤية حنفي .

الأفكار تدور وتختلط في رأسي كشعر الجنيات المتطاير . أمرك يا سيدي .. ثلاثة أعوام وأنا أقول للأعرج الثمل سيدي ، كي أتسلل في جنح الدجى إلى سفوح مغارة النسور حيث ألقى حنفي واخوانه .. أزودهم بما سمعت .. باسم القرية التي ستكون ضحية (رحلتهم التأديبية) .. القرية التي سيدخلها جنود يرتعدون وراء النار والحديد كما دخلوا قريتنا منذ ثلاثة أعوام .. يقتلون ويقتلون .. ونظل نحن ندفن ضحايانا في أعيننا .. نرفعهم نجوماً فوق جباهنا .. نخزنهم دفقة حياة في أعماقنا .. نحمل حقدهم في قلوبنا ..

انني أترنح ، الأشجار تقفز في طريقي وتصطدم بوجهي ، الصخور تزحف فوق جبيني ، والحصى تتبعثر في جفوني .. السائل البارد ما زال يغسلني ، وأنا لا أرى شيئاً سوى النور في مغارة النسور ..

النور يحرق أهدابي .. ويدي تمتد إلى صدري لتتحسس بحنان وحقد مدمرين قطعة غضروفية كانت أذناً لابنتي يوم كان لي ابنة !! ..

مثنا صندوق ! ألتفت ورائي وتلوح القرية من بعيد وحشاً خرافياً يبصق النار والشؤم ..

لم أعد أستطيع الحركة .. آلامي حبال فولاذية تشدني إلى الأرض .. إلى الأرض .. ومغارة النسور تناديني .. يجب أن يعلم حنفي والآخرون .. ان اصبعاً من الديناميت تكفي هذه المرة .. تكفي لتمتد النار إلى الصناديق النائمة في القبو بجانب زجاجات الخمر المستندة إلى حائط طالما هوى عند طرفه الآخر أخ ، أفرغت في جوفه صنابير ماء ، وفي جلده شحنات كهرباء ، وتحت أظافره دبابيس حمراء .. وظلت مغارة النسور في الذرى منارة تتدلى ظلالها من مقلتيه ، لتصفع غانية السين في وجه الضابط الأعرج ..

وفي جانب القبو الآخر أكداس من الجرحى العرب .. بعضهم قد قتل .. وبعضهم سيقتل قبل أن يعذب أو بعد أن يغرس الحديد المحمى في جرحه المتدفق .. سيقتلون جميعاً لكنهم لن يموتوا . فنحن نُقتل ولا نموت ...

إنني أتهاوى وأترنح .. الأشجار تدور والصخور تتدحرج والسيول تتدفق .. وأنا أتسلق خيوط النور نحو مغارة النسور ، ويداي تسترخيان .

خيوط الألم الفولاذية تشدني إلى الصخر .. وأنا أرفع ترتيلي إلى الأبخرة الضبابية الدامية المتصاعدة من فوهة المغارة .. أنا أهوي .. أمرك يا سيدي ..

ستنفجر صناديقك .. ستعود أذن ابنتي إلى مكانها .. وأنا أهوي .. أنادي كوحش ذبيح في القفار .. وأنا أهوي .. الأشجار والصخور تضيع في العاصفة .. وأنا أهوي ... أهوي :

« ماذا أرى ؟ .. حنفي أمامي .. الاخوان حولي راكعون في الوحل الدامي .. أسرعوا فقد وصلت الشحنة .. أسرع يا حنفي قبل أن يهرب الليل مع العاصفة .. أنا بخير ... بألف خير .. انتظر .. خذ هذه الأذن .. أعدها لابنتنا عندما تراها .. »

أحدق إلى مغارة النسور ممزقة المقلتين ، دامية النظرات .

النور يحملني ويطير بي إلى فوهة المغارة .. الأبخرة الضبابية الحمر تحنو على جرحي الدفيق .. دفء العرين ينسل في عروقي مع رائحة الطيب والبخور ألحان ملائكة خافتة ، مجرحة ، عميقة الهدير ، تتسلل فتقطع خيوط الألم الفولاذية .. لحظة اشراق عجيبة تغمرني والرؤى تتبلج أمام عيني فجراً مدهش الضياء ...

أرى الدم يغلي في الأرض .. من كل ذرة رمل ينبجس جدول .. النور ينسل من الكهوف المظلمة .. الطيب يفوح من الجثث المحروقة .. الصخور تتمخض .. النار تتفجر من الصخر .. الشمس تبزغ من الرمال .. تسجد تحت أقدام جبابرة سمر الجباه .. أعصار يلتهب في كل عين ..

الأشجار والجداول والقبور المفتوحة تهذي : « الثأر يا سفحي ويا جبلي ويا أعشاش النسور في المغاور » .

وأرى اللهيب والعواصف تهز برج إيفل .. وأرى الثلوج حمراء دامية التهطال .. وأرى غواني السين العجائز يتسترن بالظلال والعاصفة تغسل عن أخاديد الوجوه المرعبة طلاءها الملون .. فتبدو الأفاعي والديدان الجائعة .. والذعر يكتسح الساحات .. والعار يجلل شتاء فرنسا .. وأنا هنا .. أتمرغ في طهارة الوحل الدامي .. وأرقب طلائع زحف هادر من بعيد .. وأرقب انجلاء العاصفة ...

أضم القمر إلى صدري .. لم تقتله العاصفة وإنما غسلته .. وها هوذا يرقص في ليالينا وقد ازداد نوره تألقاً وثباتاً ...

أسمع صوت انفجار هائل .. أرى قلعة الشؤم تتطاير في الفضاء الرحب هباءً ورماداً ... قلعة الشؤم ضاعت ... هباء .. هباء .. وأطبق عينيّ بسلام بينما يبزغ فيهما فجر دام وليد ، وأنا أردد بلذة محمومة : يا مغارة النسور .. لا أحد يموت هنا في الجزائر .


الطفلة محروقة الخدين

الليل والقمر وصحراء دمشق . وأنا بين ذراعيك .. ولكن . أغفر لي برودي يا زياد .. أغفر لي انني لم أمنحك نفسي الرخيصة كما منحتها للكثيرين من قبلك .. أغفر ليدي التي أبعدت شفتيك المحمومتين عن سفوح الجليد الملتهب ، واغفر لقسوتي التي انتزعت من بين ذراعيك القويتين جسداً متعباً يضج بالحنين ..

لكنني سئمت يا زياد .. سئمت ضباب الأوهام الذي أغرق فيه نفسي .. وسئمت التظاهر بالتصديق . أمنح نفسي لقاء كلمات حب أعرف انها كاذبة ، ولكنني بحاجة إليها ، بحاجة إلى أن أحس ان انساناً حولي يعطف عليّ .. يشاركني في ضياعي .. كنت أعب من السراب وأظل عطشى ، لساني جاف مشقق كالصبار البري . أعب من شفاه كاذبة .. أعرف أنها كاذبة ولكنني لا أستطيع التوقف ، فأنا امرأة متعبة ضائعة ، في أعماقي طفلة تائهة محروقة الخدين ، تئن وتتأوه ، وتبحث بعينين خابيتين عن يد حنون مضت ذات ليلة .. يد أمي التي سحقها ترام يمر أمام نافذة غرفتي كل يوم عدة مرات .. كانت عائدة من السوق .. سمعت صراخاً ونحيباً فأطللت من النافذة . رأيت كتلة من اللحم معجونة بالدم قالوا انها أمي ! .. وتوقعت ان تتلوى القضبان ويتمرد الحديد ويتفتت الحجر ويدمي اسفلت الشارع .. ولكن شيئاً لم يحدث ! .. ظلت الحافلة تمر كل يوم عدة مرات ... عيونها الكبيرة البراقة تتحداني كل ليلة .. الناس الضاحكون فيها يسخرون من عذابي .. يقهقهون بوحشية كأن أمي لم تتكوم ذات صباح على هذه القضبان ..

لحماً رخيصاً معجوناً بالدم ! .. لم أفعل شيئاً .. أغلقت نوافذ غرفتي على نفسي ..

أغفر لي برودي يا زياد ، فأنت لا تدري أية براكين في الأعماق أكابد وأعاني .. حينما ضممتني إلى صدرك ، وسكبت أنغام هواك في أذني وهتفت باسمي وكأنك تمتص الحروف صرخت الطفلة محروقة الخدين في أعماقي :

ــ لا تمنحيه جسدك لأجلي هذه المرة .. نريد عطاء بلا ثمن .. نريد شيئاً كالحب الذي منحناه لحسان .. أما سئمت البيع والشراء ؟ .

أجابتها المرأة اللعوب التي هي من بعضي :

ــ لكن « حسان » كان يمنح بلا مقابل لأنه غير قادر على الأخذ .. في مدينتنا ندفع ثمن الكلمة الحانية لحماً أسمر .. ألا تعلمين ؟

ــ ولكننا لا نحصل إلا على التفاهة والخداع لقاء بضاعتك الرخيصة .. لقد سئمنا ذلنا ..

ــ ادفع لأجلك وتتذمرين ؟ . انك لا تستطيعين الحياة بلا خمرة الحنان . لقد أدمنت العطف الكاذب وعودتني دفع الثمن لأجلك ..

أجابت الطفلة محروقة الخدين :

ــ ولكنني أحبه هذه المرة .. والحب الحقيقي صحوة من صحوات الوعي لا سكرة..أريد..اريد أن أرى ما وراء البسمة،اسمع ما وراء الهمسة وأعرف ماذا تعني اللثمة .. أريد أن أعرفه على حقيقته .. أن أفتح عيني للنور ولو أحرقها .. سئمت ظلمة الهوى الكاذب .. أريد أن أعرف هل في مدينتنا إنسان واحد حقيقي لم يتحول إلى آلة تمارس الحب والصداقة بالطريقة نفسها التي تصب بها الحديد المصهور في القوالب البلهاء .. انسان أضيع في عمقه ولا أسمع صرير الحافلة الكهربائية وضجيج الشارع ،

وصخب القطعان البشرية التي تتدفق أحياناً من أبواب النوادي كالخرفان الضالة ..

اغفر لي برودي يا صديقي .. فأنت دافيء كنيران المعابد ، مثير كأحلام العذارى ، رائع الرجولة كإله وثني . كل ما فيك ظل يناديني بحرارة ، بقسوة ضارية ، منذ ضمتنا رمال الصحراء .. والليل .. والقمر .. تمنيت أن ألبي النداء .. ان اضيع في الصدر الأسمر ، أدور مع الدوامات المحمومة وأنهش من الذراع المفتولة .. اقترب منك والشرر يتطاير من شفتي ، لكنني أسمع الطفلة محروقة الخدين في أعماقي تبكي وهي تركض هاربة من سهولي الحمر ملتهبة الحشائش إلى كهوف جليدية سحيقة وتصرخ بيأس : « حسان .. أنقذني يا حسان » ... تتناثر الثلوج تحت قدميها العاريتين ، تلطخ وجهي ، تطفيء الشرر في شفتي . أبتعد عنك . ترتسم في عينيك نظرة غامضة . تهمس أنت بتحد مؤلم : « باردة » !

أجل باردة ! .. قلبي مغاور جليد أسود تزيدها الأيام برودا وغموضاً . نيران الجحيم تتراجع عن صقيعي ، وجمرات الرغبة الرجيمة تجف في سفوحي .. لا شيء هنا سوى الثلوج . برد الشمال الأزرق يلف الجسد الأسمر العاري ...

كلمة واحدة صادقة ، أؤمن بأنها صادقة .. بسمة حنون أشعر بأنك ترفعها للطفلة محروقة الخدين بلا ثمن تصهر أكوام الثلوج وتبدد الشتاء المكفهر في نفسي .. لو قلت لي انك تحبني .. تحب عيني البريئتين وطفولتي الجريح .. لو قلت لي ان مجرد وجودي قريبة يسعدك .. مجرد احساسك بأنني أهتف باسمك في أعماق صمتي يرضيك .. لو قلت لي بعينين هادئتين كبحيرة الأصيل : « أحبك يا صغيرتي » لذاب صقيعي ، ولغسلت الطفلة بالدمع قدميك ، ولأضحى اللحم المضغوط طوع يديك .. ولكنك لا تفعل ذلك . انك تقطب حاجبيك وترميني بنظرة استخفاف قاسية جاحدة ..

وتهمس « باردة ! .. »

تتحفز أنوثتي لدفع التهمة . أرمي بشعري إلى الخلف بدلال بينما أواجهك بنظرة تصهر غضبك وتشعل نيرانك من جديد .. اقترب بوجهي منك مثيرة محرقة .. أبتسم لك . اني آلهتك السمراء القوية .. آه .. تسقط الطفلة في أعماقي على صخور ناتئة وتسيل دماؤها في الصحاري الشاحبة .. لم تستسلم هذه المرة .. تتأوه قائلة : « لا تدفعي ثمن الفتات ، دعيني أتأكد من حقيقته ولو تعرضت لفقده .. لعله الإنسان الوحيد في المدينة .. حسان الجديد » . ولكنني كنت تلك اللحظة بين ذراعيك .. أريد أن أضيع عن نفسي في ضبابتك الحمراء التي تكاد تلفني .

بوجهك ضحكة فيها شبح حنان كاذب .. ولسانك يقول : « أهواك يا صغيرتي » ، وأنا أعرف أنك تقول هذه العبارة لأية امرأة في مكاني .. طفلتي الذليلة تمردت اليوم لأنها تحبك .. انها تصر هذه المرة على أن تحيا حقاً أو تموت .. على أن تملك كل شيء أو لا شيء !

الليل والصحراء وأنت يا أتون النشوة .. ولكن ، لا شيء يثيرني ! أغفر لي يا زياد فقد سئمت غيبوبتي ، انغماسي الابله اللاواعي ، وسعيي اللاهث لاضاعة شعوري .. أريد الحقيقة .. الحقيقة التي تحرق أو تضيء .. سئمت انتظاري وجبني . أريد أن أعرفك . أن أقبلك دون أن أسمع صدى صرير عجلات الحافلة المجنونة .. أريد أن أفهم هل يمكن أن يشارك إنسان إنساناً آخر إحساساً واحداً في هذا العالم الكبير الصغير ؟ ..

إنك تضمني إلى صدرك بحنان مصطنع .. بدأت الراحة الذليلة تتسلل إلى جسدي فتغرقه .. لكن الطفلة محروقة الخدين لم تتخدر حينما طمست شفتاك أصواتي وابتلعت احتجاجاتي .. بل ظلت تهوي من صخرة لصخرة حتى استقرت في مستنقع مصفر الخضرة .. انها تتلوى فيه والأفاعي تدور حولها وتلسعها كلما ازدادت شفتاك اطباقاً على شفتي . وابتعد عنك .. كأنني

ما اجتررت ذكرى لقائنا الأول ، في الصف ، ليالي وليالي .. كأنني ما عبدت عينيك الزرقاوين . . كأنني ما ناديتهما في ضياعي : « يا بركة الضياء .. يا عالم الصفاء .. يا عيني زياد الغاليتين .. اغرقاني في اللجة المسكرة » .. كأن الطفلة محروقة الخدين لم تجلس في أعماقي وديعة كالقطة ، بينما كانت يدي الصغيرة تضيع في يدك القوية التي تتسلل وتمسك بها في الليل .. في رحلاتنا الجامعية ... في حفلات التعارف البسيطة .. كأن الطفلة محروقة الخدين لم تغمض عينيها بغبطة الهية كلما تلامست أذرعنا بقصد أو بدون قصد في الدرس بينما الأستاذ يشرح .. ويشرح .. وتضيع النظريات العلمية وتتبعثر في فضاء الصف مع عشرات النظرات الذائبة .

أجل أحببتك ! أحببتك بوحدتي الدفينة تحت ستار مرحي ، وضياعي المقنع بعبثي وصداقاتي الكثيرة ..

وانتفض قلبي عطشاً .. وانتظرت طفلتي غيثك السخي ، حنانك ، صداقتك ، وفاءك .. قيم ومثل طالما قرأت عنها وآمنت بها .. أحلام ضائعة طالما لملمت حطامها ورفوتها وحنوت عليها حنو امرأة عاقر على طفل لقيط !

لم يكن من الصعب أن ألفت نظرك ، أنا التي تتحول إلى عيون الأساتذة قبل الطلاب كلما دخلت الصف متأخرة ..

وها نحن قد التقينا ، والليل دافىء ، وسيارتك الفاخرة مريحة كأحضان عاشق ، ورمال الصحراء الحارة تتلوى بغبطة مترفة في ضوء القمر .. لكن الطفلة محروقة الخدين تنتحب :

« أحب هذا الرجل .. أريد أن أحصل عليه دون مساعدتك الدنسة ، أريد أن أتأكد من أنه حساننا .. حسان لا يحتاج إلى وساطة » . أشمخ بصدري فجأة حين أجيبها : « ستفقدينه .. لن تحصلي بنفسك حتى ولا على بسمة حانية دون دفع الثمن الأسمر » .. تتأوه أنت لمنظري المثير وتضغط أسنانك ..

أنا والطفلة في أعماقي يا زياد ما زلنا نحب حسان ... ونبحث .. نبحث عنه في كل عين وكلمة .. حسان ؟ تريد أن تعرفه ؟ ولكننا نحن أيضاً لا نعرفه .. أنا والطفلة محروقة الخدين نجهل مكانه .. لم نره قط ! لم تلمس أناملنا يده القوية .. لم تتلاقَ عيوننا يوماً ! ولكننا نحبه .. نحبه ..

أرى في عينيك دخاناً خامداً وسؤالاً حائراً .. لعلك تتساءل عن سبب صدّي وإعراضي أنا التي أعبدك .. أم انك تريد أن تعرف من هو حسان ؟

« حسان ! حبي الوحيد .. ما عرف بوجودي أبداً في هذا العالم الواسع أيام كان حياً .. وأنا .. لم أشعر بوجوده إلا يوم مات .. ومضى » ..

أرى الحيرة في نظراتك والسأم في خطوط خديك التي ازدادت عمقاً وظلمة .. مهلاً .. لا تدر محرك السيارة وتعد بي إلى المدينة الجبارة : ألا تريد أن تسمع من هو حسان ؟ ألا يمكنك أن تمنحني بضع دقائق صامتة بلا ثمن ؟

حسان ! .. رأيته للمرة الأولى منذ أعوام — ضابطاً شاباً وسيم الوجه حزين العينين ساهم النظرات ، حنون التعبير — صورة كبيرة في إحدى المجلات وقد كتب تحت رسمه : الملازم الشهيد حسان !

رأيت الصورة كما رآها الآلاف ، ولم أهتم بمعرفة كيف ولماذا مات .. وكان ذلك يوم لقائنا الأول .. لا أدري أي صدى لقيت ملامحه في نفسي حتى قصصت الصورة ووضعتها في اطار أسود في غرفتي .. لعلها مراهقتي .. لعلها وسامته والحزن الآلهي العجيب في عينيه .. لعله جوعي إلى المثل الأعلى والرجل الخالد . ولما جاءت إحدى رفيقاتي لتزورني ذلك اليوم ، أدخلتها إلى غرفتي دامعة العينين وأنا أقول : أنظري صورة حسان .. حبيبي .. مات وسيظل يحبني أنا وحدي إلى الأبد ! » كنت أبكيه حقاً .. وكنت أبكيه كلما أحسست بضيق مبهم .. وكلما أحسست بحنين المراهقة الغامض إلى ما لا أدريه . فامسك بالصورة بحرقة وكأنني أنادي في حسان رغبتي وأرى فيه

تجسيداً لأحلامي . انه رجلي الذي لا يخطىء . لي وحدي .. ملكي لا يشاركني فيه مخلوق .. أنا لا أرضى ببعض رجل ! أبداً كنت أريد حباً كبيراً حقيقياً أو لا شيء على الاطلاق ! وأضحى حسان حبي الكبير .. إنه لا يستطيع أن يخونني .. ان يعذبني . انه ميت .. وأنا أحب بكائي أمامه .. وأحب الحقيقة في كونه ميتاً لأنه مثلي الأعلى ! ولأنه ككل المثل العليا لا يمكن أن يحيا ويتنفس في عالم الحقيقة القاسي .. يا لمراهقتي ومتناقضاتها وحيرتها !

ومرت أيام وأعوام وانغمست في عالمي .. ونسيت صورة حسان في بعض الفترات حينما كان يظهر في حياتي ما أظنه « حسان » جديداً ، أضع صورته فوق صورة الحبيب الأول واسبغ عليه صفاته وقيمه وأمنحه مكانته حتى إذا ما هوى صنمه في أعماقي وانكشفت حقيقته لعيني وسئمت الطفلة محروقة الخدين خبزه الشائك وماءه المر ، انتزعت صورته لتبدو صورة حسان من جديد .. هازئة .. ساخرة متحدية .. وأغلق نوافذ غرفتي لئلا أسمع صدى الحافلة الكهربائية .. « لست أدري لماذا يصبح صوتها ممزقاً رهيباً حينما أكون وحيدة دون صديق . وأحس ان لضجيجها وضحكات ركابها ابراً نارية تنغرس في عيني الجافتين المتوترتين كلسان وحش هارب . ويخيل إلي اني أرى من خلال الستائر المسدلة على النافذة كتلة من اللحم والدم المعجون ، مرمية فوق القضبان تلتمع في ضوء القمر وتتأوه كلما مر الترام من جديد .. »

أجل أحببت حسان الشاب الذي أبحث عنه وأعرف اني لن ألقاه أبداً .. الرجل الذي رسمته أحلامي ولونته بغبار أوهامي .. حنوناً قوياً مخلصاً وفياً .. لم أجد ظل هذا الرجل على الأرض حتى رأيت الربيع يرقص في عينيك يا زياد .. وتلذذت بالجو الذي تخلقه حولك .. عالمك المشحون بالرجولة والفهم العميق .. واندفعت في حبك مجنونة لا أعي .. ظمأى لا أرتوي .. ومزقت الصور كلها ووضعت صورتك فوق صورة حسان .

فقد صرت أنت وحسان شخصاً واحداً .. والآن أحلامي رماد تذروه الرياح حينما تقول لي : « باردة » ... أنخشىأن تكون كالقطيع .. تحبني إذا امتلكتني .. إذا وهبتك أتفه ما أملك . أما الطفلة محروقة الخدين .. ادعيتها الصامتة وهواها الخاشع .. وحدتها وحيرتها .. ضياعها ولهفتها . فلا وزن لها لديك .. يدك لا تحتوي عليها . شفتاك لا تمسح خدها المحروقين .. اذنك لا تتلذذ إلا بالتأوه الفاجر والحشرجة المخنوقة وطفلتي محروقة الخدين تود لو تهمس في أذنك حديثاً رقيقاً مرتعشاً كجنحي عصفور .

سئمت حديثي يا زياد لأنك لا تسمعه .. انك لا ترى في عيني سوى آبار الكتمان .. إنك لا تسمع هذيان صمتي . أنا كتلة من برود .. وكرامتي تأبى عليّ أن أنطق .. انك تدير محرك السيارة . ها هي ذي تدرج بنا لنعود إلى المدينة .. مدينتي البلهاء تزينت بالأنوار الملونة ولكنها لن تضيء .. لن تضيء زوايا القلوب المغلقة .. ضجيجها يسحقني .. يزيد في عذاب الطفلة محروقة الخدين التي تنسلّ الآن من المستنقع أصفر الخضرة ، بينما أقبع أنا في ركن السيارة أراقب طرف وجهك القوي وشفتيك المعبودتين اللتين تهمسان : « باردة » .

أحبك يا زياد .. ولكنني أريد أن أعرف من أنت . أريد أن أرى الماء يتفجر من الصخر حين يمنحني رجل حباً وعطفاً لقاء أغاني الطفلة محروقة الخدين لا لقاء جسد أسمر .. أحبك يا زياد .. وحبي لك خلق في نفسي الجرأة على التساؤل عن حبك .. عن الحب .. هل هو خدعة لصبغ رغباتنا الترابية الحمر بألوان سامية فخمة ؟ .. هل ثقافتنا ونعومتنا وثيابنا النظيفة ورائحة العطر في عنقي وذقنك الحليقة مجرد خداع ؟ مجرد ترتيل ديني كاذب في أودية الرغبة الرطبة الحارة ؟

سئمت أوثاني وسئمت « حساني » . أريد أن أرى كل شيء على حقيقته .. أريد أن تكون صادقاً .. أن تقول لي : « أنا أشتهيك » ، فأمنحك

نفسي راضية مستريحة .. ولكن .. لا تقل لي انك تحب طفلتي محروقة الخدين بينما تتحسس ذراعاك وليمة الضياع في جسدي !

لا شيء سوى جسد منتفض محموم ، وجبين يسكب حبات العرق المراهق ، وكل ما عداه مقدمات وطقوس وفتات حنان ترمي بسأم إلى الطفلة محروقة الخدين . أصبحت أخجل حينما أقول لك : « أحبك » . ها قد وصلنا إلى المدينة المجنونة . عيونها الماكرة تسخر مني .. (تهرب الطفلة إلى كهف مظلم .. تسدل شعرها فوق وجهها كي لا ترى شيئاً) .. الناس كالقطيع الشارد على الأرصفة الرمادية والظلال في عيني المتعبتين أكثر منها في زوايا الشارع والأزقة الضيقة .. وأنا هنا في ركن سيارتك أرقب وجهك القوي وذراعيك .. انك تستطيع أن تحميني من نفسي وخوفي ورعبي لو أردت .. أنا أكره الزحام ، والمحلات العامة التي تبصق أكداس الناس كالذباب الميت ، وأكره الوجوه الملوثة بالأحمر بينما الغدر الأصفر يعوي من المسام المفتوحة .. أنا خائفة أود أن تخفيني في صدرك العريض .. ان تقول انك لي وحدي دائماً .. انك تحبني .. تحب عذابي ولهيبي ، صمتي ونحيبي .. أحس ان أقدام الناس المسرعة تتحرك فوق رأسي وتهوي كالمطارق بلا رحمة .. أكاد أنهار وأهوي على صدرك .. أهوي بذل واستسلام وأستجدي خبز عطفك المسموم وينبوع حنانك الجاف .. الطفلة محروقة الخدين تدور في أعماقي مذعورة وأنت تنظر إلى وجهي بين الفينة والفينة وتغمغم بأسف: « باردة ... باردة » . النيران تشتعل تحت قدمي الطفلة ولكنكلا تشم رائحة الدخانولا تسمعها وهي تزمجر: «لن أعب من السراب بعد اليوم .. أريد ماء منعشاً كنسيم ليالي الصيف .. نقياً كالدمع . خالداً كالحب الحقيقي .. سأنبذ غيبوبتي وأحيا أو أموت .. »

وصلت إلى داري .. أمد لك يداً ميتة ، أنظر إليك للمرة الأخيرة وأنت تردد ساخراً آسفاً : « وداعاً .. يا باردة » ... اكره غرفتي والنافذة المفتوحة

على ضجيج الشارع .. انني أغلق النوافذ كلها .. أرمي بثيابي على السرير والأرض والمقعد .. أحب أن أرى ثيابي تتناثر بفوضى .. انها توحي بالحركة ، بالحياة غير المفتعلة .. ثورة جارفة في أعماقي .. اكره مثلي وحسان واكره الطفلة محروقة الخدين .. فقد أمسيت بسببهم مثار سخرية زياد .. امسك صورة حسان . كم أحن إليه ، انه مراهقتي .. انه الاخلاص والوفاء ولكنه لا يضم ! انه المثل التي طالما عبدتها ولكنها لم تتحرك وتحمني ، لم تتجسد في انسان .. عبث .. كل ما فعلته عبث وكل ما قد أفعله عبث !

في الصحراء الواسعة النقية أحسست ان الطفلة عملاقة .. أما هنا .. في المدينة المزدحمة المدمرة الساحقة ، فان خدي الطفلة يزدادان احتراقاً وسواداً وأنا هنا أحس بضياعي .. لم أعد أعرف ماذا أريد .. أنا بحاجة إلى إنسان يضمني .. يملأ أذني الخائفتين بحديث ساحر لا يقوى صرير الحافلة الكهربائية ولا حقد الناس على اختراقه .. انني أخاف دقات الساعة الباردة الوحشية كنواح الغربان في وديان الابدية .. الحافلة الكهربائية تمر .. دواليبها تصر صريراً حاداً كمنشار همجي ينغرس في رأسي .. أفتح نافذتي بجرأة وانظر بحدة .. (على القضبان كتلة من اللحم والدم المعجون قالوا ذات مرة انها أمي) .. امسك بصورة حسان وأنا أضحك منها بذعر وتمرد أحمر .. انني أمزقها .. أمزقها .. أطل من النافذة على العالم القذر وأرمي ببقايا حسان .. تتلقفها الرياح بشراهة وتنثرها .. عيناه استقرتا في تجويف الشريط الحديدي حيث ستمر الحافلة بعد دقائق .. عينا حسان ! .. بركتا الضياء .. تتبخران في الضوضاء الفارغة .. يسحقها صرير الحافلة .. ويعجنها ببقايا أمي .. ليضحك القطيع بوحشية ، فحشرة تافهة تنضم اليوم إليه .. أتوق إلى السير في الشوارع الصاخبة والتسلل بين السيارات عند المنعطفات الخطرة ، حيث تمر سيارة سائقها مشغول بمغازلة صديقة زوجته ، وتنشر على وجهي وثيابي بعضاً من برك الوحل المبعثرة في الطريق .. فتلوثني .. تلوثني .. أحن

إلى التمرغ مع الناس في برك الطين .. أنا اليوم واحدة منهم .. طين معجون بخمرة اللاوعي .: ليسخر مني صرير أحذية السكارى المتخبطين ، فأنا حشرة تتأهب لتخوض سواقي الدم والتفاهة والرياء .. أنا سلعة جديدة في سوق الجواري جردتها من إنسانيتها ومثلها آلية العواطف المتبادلة وسطحيتها ..

أين ذراعاك يا زياد .. أحن إلى كلماتك الحنون صادقة كانت أم كاذبة ، وحدتي المجنونة ترضى بالفتات .. عادت الحافلة .. انها تقترب .. مقدمتها المضيئة تلهب وجنتي .. نظراتي تتعلق بدواليبها الحديدية المذهلة التي تدور وتسحق كل شيء .. والركاب ضاحكون لاهون . عينا حسان اللتان استقرتا على الخط الحديدي المجوف تنظران إليّ بيأس خلال الظلمة — أو هكذا يخيل إليّ — لكنني لا أستطيع الحراك .. الحافلة تطحن عينيه وأنا أتنهد بارتياح دام ممزق .. يهوي عالم في أعماقي .. تهوي أصنام وأصنام .. كل شيء يهدأ بسرعة ولا يخلف سوى الرماد والحطام .

أسدل شعري بعنف على خدي كغانية محنكة .. اسرع إلى الهاتف لأعتذر لزياد عن برودي ، وأضرب له موعداً غداً في أحد الملاهي الصاخبة .. غداً .. حينما أضحك له بعينين زجاجيتين ، وأزين مائدته باللحم الأسمر ، سيقول اني حارة ، لن يشعر بغياب طفلتي محروقة الخدين . لا أحد في مدينتي يحب الأطفال محروقي الخدود ..

سماعة الهاتف تهتز في يدي بينما تضحك أنت فرحاً بعودتي واستغفاري . انهار على البلاط البارد وأركع على ركبتي .. الطفلة محروقة الخدين تركض في دهاليز حلزونية سود تضج بالعناكب والفراغ وهي تنتحب في شبه أنين مكتوم ثلاحقها عجلات ترام تعوي مسعورة في ليل الأعماق .. ويغيبها الظلام وتلفها سحب الضياع والعدم في مغاور إنسانية لا قرار لها ..

ما زال حديثنا التلفوني الحار متصلاً وأنا أحدثك بغنج ودلال .. يمر ترام جديد يمزق السكون فيطغى صريره على صوتينا وعلى ضحكاتنا ..

وعلى أنين الطفلة محروقة الخدين في أعماقي ..

وأقف قريباً من النافذة وأحدق إلى الترام والساعة في يدي وصوتك في أذني .. باردة .. بلهاء .. عيناي تنبشان الاسفلت الرمادي بحثاً عن كتلة الدم واللحم المعجون التي قالوا انها امي ، بينما شفتاي كشفاه دمى مدينتي المزيفة .. تضربان موعداً للعشيق الجديد .



رجل في الزقاق

ما زلت مغروسة أمام نافذة غرفة الجلوس وقد الصقت جبيني بزجاجها البارد ، منتظرة مرور رجلي كعادته كل أمسية . الشتاء ينسل في عروق بلدتي المنعزلة ، الزقاق الضيق الطويل مثبت باهمال تحت أسياخ الظلام التي سلخت كل آثار الشمس المريضة .. البيوت المحشورة على جانبي الطريق تكدس ظلالها المتعبة الباهتة في برك النور المتجمدة ..

بعد قليل يمر الهي الممسوخ ! الرجل الذي عبدته دون أن أعرف عنه شيئاً ، وانتظرت مروره مرتين عند هذه النافذة كل يوم .. « نظراتي النهمة تتمسح بكتفيه ورقبته وتتوسل إليه بهوان ذئب أليف أن يقرع الباب ، ويدفع ثمن الشباب ، ويحمل إلى داره طفولتي » .. انه الرجل الثالث في حياتي ..

ظل أبي الرجل الأول حتى كدت أبلغ الرابعة عشرة .. ظل ينتزعني من مساكب الشمس في أرصفة زقاقنا ويحملني بين ذراعيه الحانيتين مدللاً حتى صبيحة ذلك اليوم المشؤوم . أحس وهجه في أضلعي وكأنه لم يمض على انصرافه خمسة أعوام كاملة !! .. كنت أقف على اطار هذه النافذة بالذات أمسح زجاجها بحيوية أربعة عشرة عاماً ، ثوبي الحريري يكاد يتمزق عن جسدي .. الفجر الوليد ينسكب من صدري وزندي .. كنت أعمل بحماسة كي لا أتأخر عن موعد مدرستي .. أدندن بأغنية حالمة تحكي قصة فراشة ظلت تناضل حتى ثقبت شرنقتها المهترئة وانطلقت مرحة تغازل نجوم السماء .. لا أدري كيف حانت مني التفاتة ورأيت أبي يقف أمام باب الغرفة مشدوهاً ..

نظراته عالقة بصدري حيث انتفض برعمان متمردان ، يدفعان الثوب بتحدّ .. بقوة الحياة .. بوحشية فطرية .. بصراحة بريئة الفجور .. تشنجت نظراته هناك ولاح فيها صراع قصير الأمد ، ثم استقر تعبيرها وتبدّى فيها بعض من رعب خفي وحقد مبهم غريزي . وكأنه كان يسمع الصدر البكر صارخاً متحدياً : « لا يمكن أن تظل دميتك المدللة إلى الأبد .. ألا ترى انها امرأة ؟ هي جدتك التي كان ينهرها أبوك ، وأمك التي كان يضربها ، وزوجتك التي تجفف لك كل ليلة قدميك »

.. لحظة مشحونة مريعة انتصبت بيننا وأفسدت ما سبق من ودنا وتقاربنا .. سحب ضبابية سودها تعاقب الأجيال ضجت وثارت في دمه حتى ابتلعت الحنان والاطمئنان في العينين .. عاصفة غبار نتن هبّت عن قبور سحيقة .. عربدت ذراتها وتأججت بيننا .. حجبت عني دفء محبته وثقته .. جليد حقد مبهم تطفل على البسمة الحنون وظل كالعلق يمتصّ من صفائها حتى أحالها إلى تكشيرة مقيتة تفور بالاستهتار والتحامل على أنوثتي .. حدث هذا كله في أقل من ثوان .. في التقاء نظراتنا .. وشعرت بإيحاء مكهرب !

إنني أتيت جرماً منكراً ! .. إن مجرد كوني امرأة عار لا يغتفر .. ان في صدري وبروزه خيانة لصداقتي مع أبي ..

ودون وعي مني ، قوّست كتفي إلى الداخل ، وكأنني أستطيع إخفاء صدري عن لسع نظراته ، رميت بالفرشاة ، قفزت عن النافذة وانفلتّ هاربة إلى غرفتي ، أبكي دون ما سبب واضح ، فنحن لم نتبادل أي حوار !! .. لكنني فهمته جيداً كما فهمني ..

ما زلت واقفة أمام النافذة ، صدري يضج بعويل مبهم الانات ثار واستيقظ منذ ذلك اليوم المشؤوم .. فيه بعض من صرخات طفلة موؤودة في عصر ما .. وفيه بعض من نحيب أمي المختلس في غرفة نائية الجدران .. وفيه من مذلة اخواتي الثلاث اللواتي تزوجن بعد أن زارتنا «خاطبة » ثرثارة

تشبه الساحرات ..

ما زلت مغروسة أمام النافذة !

أنفاس أمي وأبي المتكاسلة تتهاوى فوق الزجاج البارد .. خيبة مريرة تنضح من احساسي المبهم بالذنب والعار .. الاحساس الذي تضخم مع امتلاء قامتي وتغذى من ضيق أبي المهين وتجهمه ..

أرجو ألا يتأخر أخي كعادته كل ليلة.. أخي.. الرجل الثاني في حياتي.. رفيق دربي أربع مرات في اليوم ، وحارسي الأمين أثناء ذهابي إلى مدرستي الثانوية .. « لا مانع من أن تظل في المدرسة ما دام ليس فيها أساتذة شباب !! » لا فرق لدى أبي سواء نجحت أم رسبت . درست أم أهملت .. المهم انتظار الرجل الذي يخلصه مني ، من مصيبته الرابعة المغروسة أمام النافذة .. مني أنا !

وأنا ما زلت أنتظر مرور الهي الممسوخ !

الذكريات المؤلمة ترقص على الزجاج أمامي .. تقفز منه لتنهش من هدوئي .. وأرى يوم انتهت سنو دراستي الثانوية وسجنت في الدار .. أرتدي ثوبي الأحمر الضيق ، وأعرض على الخاطبات رشاقتي .. أدور أمامهن وأحلم بالعاصمة الملونة .. بجامعة فوارة الشباب ، نهبت حيويتها وصخبها واثارتها مع منابع الشمس .. مقاعد طويلة تزدحم بالشبان والفتيات .. أيام تزخر بحياة حقيقية الامتلاء .. محاولة وخيبة ، نجاح وفشل ، حرارة تجربة ونشوة نصر ، خطأ وضياع وايمان .. متناقضات من ليونة حقيقة وصلابة وهم .. أحلم بكلية الطب التي شغفت بها حباً ، أخلق من الأوهام زملاء أقف أمامهم في فناء الجامعة بثيابي المحتشمة ، نظيفة الوجه ، معقوصة الشعر ، وقد فردت كتفي وشددت صدري إلى الخارج .. لماذا لم أجرؤ يوماً على أن أبوح بهذا كله لأبي ؟؟..

صوتي الذليل الذي رجوته به كي يسمح لي بالذهاب إلى دمشق يرتعش

الآن أمامي في زجاج النافذة .. دوائره المتسعة تضيق وتضيق حول عنقي فتدميه : « أبي .. أرجوك .. أعني هل من الممكن .. أقصد .. هل يمكن أن أحلم بالذهاب إلى كلية الطب » ..

وكم كان جوابه مختصراً وبليغاً : صفعة على خدي ، بصقة إلى الأرض .. وتخبط الحلم الذهبي بين سنابك واقعي ...

ما زلت مغروسة أمام النافذة أنتظر مرور أحمد بينما صوت « نارجيلة » أبي الكسول ينهش من أعصابي ببطء محموم .. فأحس الجمر في حلقي .. والدخان في عيني وأنفي ، كم تزينت وتسللت إلى هذه النافذة في وضح النهار منتظرة مرور أحمد .. أعرض عليه مفاتني بقدر ما تسمح النافذة الضيقة ورعبي من أن يضبطني أبي .. كم تأوهت وانتحبت .. ابتسمت وغمزت « حركات تثير اشمئزازي ولا أملك سواها » حتى أحس بوقفتي بعد أشهر من عذابي ، وأضحى يتكرم برفع حاجبيه قليلاً ربما يرشقني بنظرة فخور ، ثم يعود إلى مشيته القوية . ولا أملك إلا ان أحبه ..

وأحببته مبهماً مثيراً .. وأحببته شبحاً تحوك أمي وجاراتها أساطير طويلة عنه . خيالاً لا أعرف عنه سوى جسد غامض يتحرك ليلاً في الزقاق الضيق ، يغسله نور الشارع . ضوء يتفجر من ركبتيه ، يتلوى بغبطة عند خصره ، يرتد عن صدره العريض ليعود ويضم رقبته .. أحببته وهماً نائياً ساحر البعد .. مدينة عجيبة الالتماع ، لم يسمح لي بالدخول إليها ورؤية أبوابها المهترئة عن كثب ، فظللت أعبدها مضيئة غامضة لذيذة الرعب .. أحببته جزيرة مرجان ضبابية غارقة في بحار فيروزية .. وأنا على الشاطىء القفر .. تشدني إليه نظرات أبي وذعر أمي .. ولا أملك إلا أن أعبد المرجان .. أنشد من أبخرة الوهم تراتيل أشجى من أنين عرائس البحر .. لو تُركت أخوض في اللجة الفيروزية .. أجرب برد الماء وقذارة الماء ووعر الجزيرة .. لو كان لي بعض حريتي لأدركت منذ زمن طويل ان أحمد الذي سحرني

بشاربيه الرفيعين رجل متزوج وشبه أمي ! .. وان هوايته تحنيط النساء .
ولجنبت الفرحة البلهاء يوم جاءت أمه تخطبني زوجة ثالثة بعد أن سحرته
غمزاتي ، واشاراتي السخيفة عند هذه النافذة ! يومئذ استيقظت من الحلم
الكريه وفوجئت بواقع أشد كراهة ! أحمد غني .. وأبي لا يجد مانعاً —
بل ويصر — على زواجي به ! ..

الخواطر المؤلمة تفيض من جوارحي ، وكل شيء يلوح الليلة غريباً
مهزوزاً لعيني .. القمر يرتجف .. يود أن ينطلق مذعوراً إلى حيث يغرق
في شمس ما ويضيع .. يتلاشى .. لكنه مقيد هنا في كبد سماء الشتاء ..
يرتجف ذليلاً زائغ الظلال .. ينثر فضته مكرهاً ، ذله واستسلامه يثيران
حقدي واشمئزازي .. يجب أن أهرب بنفسي .. ان أحطم سلاسل تشدني
إلى شرنقة مهترئة .. يجب أن أكون طبيبة .. أتوق إلى الارتماء في الحياة ..
يا لنيران هذه الغرفة .. انها تتأوه برداً .. تحترق دون أن تضيء .. ترمي
ظلالها المتعبة على وجه أمي القابعة إلى جانبها كئيبة الذل .. وعلى عيني أبي
القاسيتين اللتين أحس انه يغرس نظراتهما في ظهري كي التفت إليه ، أنفاسه
المتسارعة توحي بأنه يود أن يحدثني ، لكنني سأصمد . لن ألتفت هذه المرة
إلا إذا ناداني باسمي .. لم أسمعه وهو يلفظه منذ زمن طويل .. حتى لو
ناداني ... فانني لن أجرؤ على النظر إلى وجهه ، فأنا أرى خلال رعبي كل
ما في الغرفة ، وأشعر بتيارات الغضب المتوهجة من مسام وجهه المتفتحة
وأوداجه المتهدجة ..

إنها الثامنة وأخي لم يعد بعد !!.. أعرف ما سيحدث بعد ساعات
عندما ينتصف الليل ويدخل مترنحاً .. يثور الوالد كالعادة ، يتهجم عليه
جاهلاً أو متجاهلاً انه سبب مأساته .. تبكي أمي وتندب حظها الذي
ابتلاها بأربع بنات وشاب وحيد خذل زوجها الذي يريد أن يكون ابنه
طبيباً .. ينتهي الشجار بسرعة بعد أن تتلقى أمي بعض الصفعات الموجهة

أصلاً إلى أخي .. وأتمزق أنا في الركن المظلم ، ويخيل إليّ انه يتعمد أن تسقط ضرباته على وجهها هي ، وانها أصبحت تفهم ذلك وترضى به في استسلام .. بل انني أشعر بأن أخي يدرك ذلك كله وتتفتت أعماقه بقدر ما تسمح لها أبخرة الخمر بذلك ثم يذهب كل إلى فراشه .. وتنام أمي كأن شيئاً لم يكن ! .. ويقضي أبي صبيحة اليوم التالي متوسلاً إلى أخي تارة ومتوعداً تارة أخرى ليقنعه بالذهاب إلى كلية الطب .. ويظل أخي مصراً على دراسة الموسيقى أو البقاء عاطلاً هكذا .. وتعلو الاصوات بينما أنا في الركن المظلم حيث نسيت الشمس أن تشرق .. أموت شوقاً للثوب الأبيض والمخبر ورائحة الكتب السميكة ... تذبح أمام عمري فوق عتبة النافذة .. وأخي مشرد ممزق يدفن عذابه في الخمرة وفي شوارع البلدة النائية وصدى يلاحقه : « أنا .. ما عندي بنات دكاترة ولا ولاد مزيكاتية .. »

ما زلت أنتظر أحمد أمام النافذة .. أحاول عبثاً إخفاء رعشتي وأنا أحس نظرات أبي تنغرس حادة في ظهري .. تنفذ ببرودها إلى عظامي . تختلط بقطرات دمي المذعورة .. برد متعفن القدم ينبع من كل مكان .. من الجدران الصدئة ، من جزر أكلة لحوم في العيون .. من الاسفلت الرمادي الكئيب .. من صرخات أبي وذل أمي وهي تحضر له الماء الساخن .. تجفف قدميه بيديها . أحس البرد المتعفن يتدفق من أطراف أصابعها .. يتكدس عند قدميها .. برد أزرق مريض ينسكب من أجيال تجثم على صدرها .. يتدفق غزيراً . يتدفق من النوافذ .. يملأ البلدة ويغمر زقاقنا .. يرتفع ويرتفع حتى يكاد يخنقني .. يطفىء نيراني وثورتي وتمرد أوهامي .. وأنا أهرب وأهرب من صقيعي الذليل إلى عالم خيالي .. إلى شبح رجل كان يتحرك كل ليلة في الزقاق الضيق ... تمزق مسامير حذائه الصمت بينما تنشق النوافذ على الصفين قليلاً . تنحشر وراءها رؤوس نساء ذليلة .. تتدلى نظراتها إلى الشارع كألسنة كلاب مسعورة اللهاث .. وتظل نظراتها تلعق كتفيه وشفتيه وركبتيه وخصره .. تسجد لرائحة الرجولة المنبعثة حتى من موطىء قدميه ..

وتظل أوهامنا تحرق البخور لأي رجل يمر .. لسر الأسرار .. للغز المغلق المثير .. للنبأ المدهش : رجل في الزقاق ! ! .. وهكذا أحببت أحمد منذ توجت سني دراستي الثانوية بالصفعة والبصقة .. منذ أضحى الزقاق الضيق عالمي ، معبدي ، ترابه المقدس يطأه رجل ليس بأبي ولا أخي . رجل قد يدق بابي ويجرني إلى هيكله الغامض .. هكذا أحببت أحمد ! .. فارساً أسطورياً أجلس وراءه على جواده المسحور وأطوق خصره بذراعي ، بينما يطير بي إلى ليال من سحر ألف ليلة وليلة .. إلى حيث المجهول .. وأنا أهوى وأخشى المجهول ..

لماذا تأخر إلهي المحطم الليلة ؟

أريد أن أراه .. أن أتشفى من نفسي برؤيته !!..

أتشفى من أشهر قضيتها أحلم بكتفيه العريضتين ومشيته المبهمة ، أرمقه وأضاحكه ، أدور أمام أمه كلما حضرت خاطبة مراقبة ، أعرض عليها مفاتني وذلي واستسلامي ، منتظرة أن يحضر ذات ليلة ليشتري جدائلي ويشدني منها إلى داره .. أريد أن أتشفى من ذلي وعاري ..

أبي يتنحنح في مجلسه ويلكز أمي بطرف قدمه .. يتوقف شخيرها المتقطع وتسأل : « ماذا حدث » ؟ .. يجيبها بخشونة « قولي لابنتك أن ترتدي ثيابها بسرعة .. سيحضر أحمد مع أمه الليلة لقراءة الفاتحة !! »

أتظاهر بأن كلماته لا تعنيني .. لا تحملني في دوامات من جمر نتن وشوك أجرب .. ويخيل إلي ان في عباراته رعشة خوف مبهمة وكأنه يود التخلص من النبأ بسرعة ، كمجرم يحمل قنبلة مدمرة ويريد أن يرمي بها وينتهي .. أمي تنهض لترتدي ثيابها ، وأنا هنا ، تمثال من برود أمام النافذة يزداد انكماشاً وتجمداً ..

ها هو ذا أحمد يلوح في آخر الزقاق بينما تدب أمه بجانبه .. إنني قنفذ .. أتحرك إلى أحد أطراف النافذة وأتكوم باشمئزاز ، أشواكي تنتصب حادة

متحدية .. جو الغرفة مشحون بانفعالاتي الكارهة .. قامته تقترب في الزقاق وأنا أزداد انكماشاً وشماتة بنفسي .. النور يتفجر من ركبتيه .. يتأوه عند خصره .. يرتد عن صدره العريض ثم يدور بشدة حول رقبته .. وهو يسير بثقة قاسية .. مسامير حذائه تزحف على وجهي في كل خطوة ... القيد ينغرس في لحمي كاوي البرودة .. أريد أن أهرب .. أبي يقف أمامي في يده صفعة وعلى شفتيه بصقة .. أريد أن أهرب .. أمي تجفف قدمي أبي والبرود ينسكب من أصابعها .. أريد أن أهرب . البرود ينسكب من أجيال تعول في صدرها .. يغمر الغرفة ، يغمر الزقاق، يغمر حنقي وتمردي ويجمد ثورتي .. أحمد يقترب .. مسامير حذائه تنغرس في مقلتي خطوة إثر خطوة .. رؤوس النساء تنحشر وراء النوافذ ونظراتها تلعق موطىء قدميه ..

جاء في موكبه المريع بعد أن ناديته ليالي وليالي بعينين معصبتين .. انه يقترب .. انه يقترب وأنا ما زلت واقفة ، كتلة من صقيع ..

لماذا لا يتحرك الصقيع الابله في ذرات المعادن والأجسام الساكنة ؟ يتناثر ثلجاً ناصعاً .. ثلجاً يفور بعنف في الشوارع .. بصراحة .. بعري مذهل الصدق مخيف البياض ؟ الباب يقرع ، أبي يصرخ « ارتدي ثيابك وتعالي .. وصل أحمد وأمه ! » ..

أركض إلى غرفتي ، السأم المتمرد يتناثر تحت أقدامي ، أحشر صدري وردفي في ثوبي الأحمر الذي أعدته أمي ضيقاً مثيراً لأرتديه كلما جاءت خاطبة .. أرفع خصل شعري بينما يتدفق في كل شعرة تيار ألم مرير الذل .. أقف أمام المرآة .. أرقب رقبتي البيضاء الشاحبة كعذراء مغتصبة .. أتحسس بأسف كتفي وساعدي ..

أمي تفتح الباب فجأة صائحة : « ألم تنتهي بعد ؟ أحمد يريد أن يراك قبل أن نتفق على المهر ! » أسير وراءها بذهول .. أمي .. أمي تصرخ اليوم وتتنمر .. نسيت كيف اشتراها أبي ذات مرة .. لتسكينا على الأرض بلا

احساس بالخلق والإبداع كأية آلة تفريخ .. وأنا أيضاً .. علي أن أقتنع وأقنع .. أن أصمت وأتقدم ..

أدخل غرفة الرعب ، يجلس في أحد الأركان أحمد وأبي يتسامران .. شكله يختلف كثيراً عن رجلي المتخطر في الزقاق . إنه كريه المنظر ، كريه الرائحة . كريه البرود !! . يذكرني بالمقبرة في الجانب الآخر من البلدة .. نظرة أبي القاسية تنسكب فوق رأسي ، انني أدور أمام الرجل متظاهرة بتقديم كأس ماء .. أعرض عليه غنائمه .. عيناي تصرخان به : ارفع الثمن .. ألا ترى الخصر النحيل ؟ ارفع الثمن ! ألا ترى عناقيد العطر الشفافة وسلاسل الليل ؟ .. ارفع الثمن ! .. فأنا ذليلة لا أثور إذا عرفت انك تخون .. وأنا سأبكي ذات يوم إذا مرضت ، لا خوفاً عليك ولكن خوفاً من أن أموت وأولادي جوعاً .. وسأنتحب بصمت إذا ما عدت ذات ليلة وحمرة شفاه رخيصة تلطخ قميصك ... فالمفروض انني غبية ومطيعة .. ذكائي يتوقف عند مساعدتك على خلع حذائك ، وصلتي بك تنتهي عند حافة فراشك ، حيث تخرج أنت إلى عالمك .. عالم الرجل .. وأنا أدرك هذا كله فأرفع الثمن ! ! ..

نظراته ما زالت تنبش الثوب الضيق .. تنغرس في اللحم الطري حيث اوزن ببرود لا انساني .. بعد دقائق وانضم إلى أمي وجداتي ، اجتر همسات الزقاق الضيق ، والعق بأوهامي أجساد العابرين ..

للمرة الأخيرة أنظر إلى عيني أبي غاضبة مستنجدة .. يصعقني بريقهما الوحشي كلما دق بابنا خاطب .. يخيل إلي انني رأيته في ألف ألف جيل ولدت فيها قبل أن أولد هنا . رأيته منذ أكثر من ألف عام في الصحراء .. بينما كانت عباءة أبي تطير وراءه ومخالبه العشرة تنبش الرمال وتحضر لوأد سنواتي العشر ! وأراه الآن وأنا أكاد أدفن في صدر رجل مجهول ..
صوت أبي يوقظني : « انها موافقة ، وصمتها الذي تراه مظهر

خجلها » وأهوي من جديد .. سأكون لهذا الرجل مدى الحياة ..

شفاه كل من في الغرفة تدمدم .. لعلهم يقرأون الفاتحة .. وأنا أسحق بين مد الدوامة وجزرها ..

الآن أدرك ما الذي كان يدفع بجارنا إلى العودة كل ليلة بقميص ملطخ بأحمر شفاه رخيص .. انه يجد عند الأخرى قذارة .. ولكنها عارية .. صادقة العري ، فاجرة البوح بالشر الحقيقي .. وهو يفضل هذا كله على فضيلة زوجته المكرهة المزيفة ..

انفجر البركان .. انسكب المطر .. هدرت السيول .. انهض والشرر يتطاير من مسامي وشعري وأناملي .. نظرات أبي المذعورة تستوقفني قبل أن أخرج من الغرفة صارخة « لن أتزوج من هذا الرجل .. أريد أن أتمم دراستي » . أحمد يتضاءل أمامي .. يتضاءل .. يستحيل إلى قزم .. يتسلل من دارنا مع أمه ، وأنا أردد بلذة محمومة : أريد ... أريد .. للمرة الأولى اجرأ على أن ألفظ كلمة « أريد » ! .

أمي وزوجها ينظران إلي بذعر ولا يقويان على الكلام . ذلي المتمرد عقد لسانها .. حنقي المسعور أيقظها وأنا أردد : « سأذهب غداً إلى الجامعة » ..

تخيل إليّ ان أبي قد ينهار إلى الأرض في إحدى نوباته القلبية .. أحبه .. أتمنى أن أغسل عن وجهه غبار التعب . لكني لن أفعل .. لن أتراجع هذه المرة .. يجب أن يكون هنالك ضحايا .. يجب أن أتحرك ... ان يتدفق سيل من الأنوار الدافئة .. يتراجع أمامه الصقيع الأزرق .. وأهتف بأبي : « امنحني ثقتك وبركتك .. فلا مفر من أن أذهب إلى الجامعة يا أبي .. »

وينسحب من الغرفة وقد حنا رأسه أكثر من عادته .. وأمي تتبعه إلى حجرتها صامتة وفي ركن عينيها رضى خفي وسعادة مبهمة ..

بينما اتجهت أنا إلى النافذة الزجاجية لأحلم بالارواب البيضاء ورائحة المختبرات .

في سن والدي

(*) تُرجمت هذه القصة إلى الإسبانية

حديقة الفندق تعبُّ من نزف الأفق ، الظلال الدامية تنسكب على الغابة الموحشة الهاجعة أمامنا ، تتوهج فوق السيارات المصطفة في الساحة السفلى تلتهب بها وجوه النسوة ، تمتزج مع ألحان العازفين العذبة في تهويمة الهية يزحف الراقصون معها إلى كهوف النشوة والسعادة .

أمي جميلة في ثيابها السود ، صديقتها الثرثارة تحرك فكها الأسفل ويلوح لسانها النابض وكأنه ذو شطرين . المقعد الذي أجلس عليه ملصق بالافريز الحديدي الملون ، وقريب جداً من سيارة بهاء .. قال انها سيرحلان عند الغروب .. بعد لحظات ينطلقان إلى حيث لا أراه أبداً ، كما مضى أبي منذ أشهر .. أعرف أين ذهب أبي ، أستطيع أن أنقل باقة البنفسج التي كان يحبها من غرفته إلى قبره الرخامي . أما بهاء .. فسيرحل مع الشمس إلى حيث لم يلحق بها أحد ..

أغص بضحكة عابثة انطلقت من مكان ما . تغيظني . لماذا يضحكون ؟ سيذهب الليلة .. كيف يرقصون ويغازلون ويتنزهون ؟ كيف تظل أغصان الياسمين تنفض شذاها كأن شيئاً لم يحدث ؟ وحيدة . العالم دوامة هازئة لامبالية .. الشمس تجوب مسالك جبال مجهولة .. الليل ينفض دماءه السود . الخريف ينتشي في الظلمة ويزفر أنفاسه في نسمات باردة . ارتعد . أنكمش في مقعدي . أحب كبرياء الخريف واحتضاره الخفي . خريف بهاء ، كم أحببته ! أعوامه الخمسة والأربعون كانت غلالة غموض عميق شدتني إليه منذ الوهلة الأولى . مذ أومأت أمي إلى رجل يمشي في صالة

الفندق قائلة : « هذا أحد أصدقاء والدك الذين أضاعوا شبابهم في اللهو والتنقل » . وسمعت فحيح صديقة أمي يهمس : « لا ريب في انه اختار هذا المصيف المنعزل ليلتقي بإحدى عشيقاته .. سمعت ان عشيقته الأخيرة شقراء .. إنه يتجه نحونا .. »

سكتت عندما مد يده يحيينا ، صافحته أمي بحزن إضافي كأنما تريد أن توحي إليه بأن وجوده ذكرها بالمرحوم والدي وبأنه مدين لها بكمية لا بأس من كلمات التعزية . لكن كلماته كانت مقتضبة . أحسست انني أمام إنسان يكره التملق . يعرف جيداً كيف يدفن الماضي ببساطة ويهتم بالحاضر والمستقبل . وكنت أنا المستقبل . جلس طيلة أمسيته الأولى يداعبني ويحدثني كأنني أعرفه قبل أن أولد . لم يكن كثير الحركة والقلق والضجيج كالشبان ، لكن صوته كان عميقاً ناضجاً مثقلاً بالتجربة . حديثه ألهب كل ثانية من ثواني أعوامي العشرين . ولما نهضت لأنام ، كنت دغلاً تتأجج مجاهله بعدما عاش دهوراً يبحث عن شمس ما .. ولما نبت مع الفجر بين أشجار الغاب ، في اليوم التالي ، قفزت من مقعدي في الحديقة لألقاه .. ولأسمع محاضرته عن فوائد النزهة المبكرة في الغابة .. لم أكن بحاجة إلى اقناع ، كانت رؤيتي له كافية .. وكان الغاب خير رفيق ..

لماذا لا تحدثني أمي وتنقذني من خواطري ؟ ما بالها صامتة ؟ لماذا لا تروي لي – كعادتها طوال الشهر الماضي – ذكرياتها مع أبي وبهاء في الأيام الخوالي ؟ .. لماذا لا تقول لي بلهجة ذات معنى انه كان في الخامسة والعشرين من عمره يوم وضعتني ؟ .. انها صامتة كالموت .. تراها تعرف انني أحب أعوامه الخمسة والأربعين ؟ لا أحب إلا أعوامه الخمسة والأربعين ، أحب شعيراته البيض حين تسطع في أعماقي كأبهى فجر .. وأحب وجهه المجهد وحيويته الضائعة وأحب سحابة الكآبة المبهمة التي تلفه كلما جلس وحيداً ينتظرني ..

أبداً لم يقل ان أيامه مياه جدول تتكسر بين الصخور الصلدة باحثة عن ذرة تراب تسقيها .. عن شيء ما تخلقه وتبدعه ... لم يقل ان لهوه وعبثه بمزقانه .. لكنني فهمت كل شيء ليلة تأملته وهو يجلس وحيداً في الحديقة ..

كانت ليلة هاربة من كهوف الشتاء ، لذا أوى النزلاء إلى غرفهم مع خيوط الظلام الأولى . لم يكن يدري ان أحداً يرقبه ، كان يحدق إلى طير يقفز بحنو حول عصفور صغير خذلته أجنحته الفتية .. اهتمام ملتاع عجيب رقص في عينيه . شيء لزج كالدمع تشبث بمقلتيه ، تنهد بارتياح عندما تمالك العصفور الوليد نفسه وحوم من جديد بينما الطير الكبير يعلو ويهبط حوله بحرص البخيل ، نادى خادم الفندق ، طلب منه فنجاني قهوة ، أتى بهما الخادم وهو يلتفت حوله متعجباً ، أخذ بهاء يعب من الأول بينما أزاح الثاني إلى الجهة المقابلة من المنضدة أمام المقعد الخالي تجاهه ، خيل إلي أن أبخرة الفنجان المهجور كانت تمس أعماقه بدفء مبهم . لم أخيب أمله . جلست أمامه ، أحسست بأنه تضايق . لا يريد أن أفاجئه وأتأمله . أعماقه في تلك اللحظة عارية ، لم تكتشف مجاهلها وشطآنها البنفسجية امرأة بعد ، وتأملته بفضول وألم وتحد .. أبداً لن أنسى وجهه .. كان عميق الحزن صامت الحزن كأبدع وأسمى خريف .. آلامه المبهمة تطل بسمو كقمة جبل بعيد تلفها غلالات ضباب هادئة كالكبرياء . وكان وجهه ندياً كروض عبثت به زخات الخريف المنعشة . خيل إلي انه يبكي بمسامه ، يبكي بكل حواسه ، ينضج عذاباته بصمت السنديان . لم أقل شيئاً . ظللت صامتة . بعد دقائق سألني :

— هل يضايقك صمتي ؟

أجبته : « ما أحلى الكلمات التي لا نقولها عندما نحس ان الحرف عاجز عن استيعاب انفعالاتنا » .

وانقضت فترة صمت أخرى قبل أن يهمس بصدق عجيب : « أنا أتقن صناعة الكلام والغزل ، أما أنت فسأمنحك صمتي ، هل تقبلين ؟ » ..

لم أجب . لم أهرب بيدي من أتون يده عندما أطبقت عليها دافئة حانية ، منجدة مستنجدة كشفاه ظمأى ..

ولما عاتبتني أمي ليلاً لم أغضب . ولما ذكرتني بأنه كان في الخامسة والعشرين من عمره يوم ولدت أحسست بالزهو والسعادة . قبلتها فجأة وأنا أقول : أحب الخريف يا أمي ... ولما مضيت إلى فراشي لم أنم ، دخلت بعد ساعتين وكأنها تعرف انني لم أنم ، قبلتني بحنان عميق أيقظ مخاوفي ، تمسكت بوسادتي وطلبت منها أن تفتح النافذة لتدخل رائحة الخريف .. لم تقل شيئاً فأيقنت أنها فهمت كل شيء ..

لماذا أستعيد هذا كله ؟ .. نظراتي معلقة بالباب الكبير . بعد لحظات يهبط ليرحل مع شقرائه .. انه لم يحبني . كان ينتظرها .. كنت دميته الصغيرة . لا لم أكن دميته الصغيرة . لماذا أخدع نفسي ؟؟ كنت شيئاً ما في وجوده .. وإلا فلماذا بجمدنا منذ أيام بينما كنا عائدين من الغاب ؟ لماذا وقف كتمثال عذاب صلد عندما دخلنا الصالة وأطلت علينا ساعة الفندق العتيقة كشيطان شامت ؟ .. كانت قضبان غطائها الخشبي أنياباً سوداء حانقة . كانت تدق ببلاهة .. بلا توقف ملايين من دقاتها تقف بيننا ضحكاتنا خبت .. الأخاديد في خديه ازدادت عمقاً . أحسست اننا نتقلص والساعة تتسع ، ودقاتها تعلو ، نتقلص . الصالة تظلم . جدرانها ترتفع ، تغيب في السماء . السماء ضيقة وصغيرة وبلا نجوم . الساعة تعول . نتقلص . نحن جرذان في أرض صديدية عفنة . الساعة إله وثني أسنانه السود لا تشبع ، مددت يدي أبحث عن يده . وجدتها متعبة مسترخية بجانبه . أمسكت بها . كل شيء في مكانه وصديقة أمي اللجوج تلقي علينا تحية الصباح بلهجة ذات معنى ، قال فجأة بخشونة : « لن أراقصك الليلة . انني متعب » .. لم أجب . أضاف

كأنه يعذب نفسه : « انت طفلة وشابة لا تتعبين .. أما أنا فقد هرمت .. لا تنسي هذا ، لا تنسي حديث الساعة » .

أمي تبدو الليلة مضطربة . ترقبني من طرف خفي ولا تجد شيئاً .. لماذا لا تثرثر صديقتها الليلة كالعادة ؟.. في وجهها ظلال اسف تكسوها بمسحة، إنسانية لم الحظها من قبل . ماذا حدث لهما ؟ تنتفضان . ها هو بهاء يحمل إحدى حقائبه ويقترب . الشقراء التي وصلت إلى الفندق صباح اليوم تسير إلى جانبه . غيوم في أعماقي . الرعب . التحدي . المصير . لماذا هرب ؟ صواعق الشتاء تزحف وصقيعه كذلك . لماذا يهرب الخريف ؟ فتحنا له نوافذنا وادغالنا .. لماذا يهرب ؟ مواقد الشتاء تملأ أعماقنا بالدخان . الدخان يلون كل شيء . الموسيقى والألوان والناس يغوصون . لا شيء سوى عينيه . يقف أمامي مودعاً . يده تضم يدي بلهفة . أمي تبكي . لا أعتقد أن ذكرى أبي هي السبب . نظراتي تتشبث بوجهه في تمزق يائس .. عشيقته وقفت جانباً . أسلاك شعرها الشقر تغوص في خدي .. وجهه يملأ الكون كله .. وجهه يغطي السماء والوجود بعوالم جديدة من قلق واستسلام وغربة . شفق في عينيه . وجهه يتقلص .. الأسلاك الشقر تبدو من جديد . الضجيج يمد زعانفه وأمي تصافحه بحقد مبهم . لا تتقبل تعزيته ببهجة مازوكية كعادتها - صديقتها اللجوج تتأمل عشيقته بحقد امرأة ! لم أكن أصدق ان مثل هذه المخلوقة تستطيع أن تحقد . يهبطان إلى الساحة . الأضواء تنزلق عن وجهه عندما يغيبه جوف سيارته .. لا أراهما . انها تلتصق به . تحتل مكاني بجانبه . غيمات حنان عينيه تمطرها اطمئناناً وسعادة . الاسفلت يركض تحت العجلات . الظلمة تبتلعها بنهم . الموسيقى حولي تستحيل عويلاً . الأحذية تقفز . .. تدور . كعوبها الحديدية تدق فوق دماغي .. تنغرس في رأسي .. الساعة تلوح من بعيد .. تقترب . أسنانها الخشبية تريد أن تمضغني .. المقعد يدفعني عنه ، انطلق . اصطدم بالراقصين . يقفون في وجهي . يحجزونني كي يمضغني شيطان الساعة العتيقة . اختنق .. أدافع عن نفسي كوحش سلطت

على جراحه أضواء العالم كلها. أكافح . أسبح في المحيط الآدمي المتلاطم.. يفسحون لي مكاناً .

أظل أنطلق إلى غرفتي . إلى شرفتي التي تطل على الوادي ... لا ضجيج .. لا إنسان .. لا أحد يحس معي ، الوادي يلوح عميقاً حزيناً خفي القاع ، عالم من خريف وغموض وظلال ، عالم من كبرياء وصمت . لو أهوي فجأة . أتقلب بذعر ثم استسلم للفضاء . امتزج بالعاصفة والطين والاجواء . أنا ذرة دنسة مدارها معزول في فلك من وحشية وعويل ، لا صديق . عواء بعيد حزين ملتاع يصعد إلي من الوادي العميق .. ينتحب في انات إنسانية .. يناديني .. لو أهوي إلى جانبه .. فيتناثر جسدي قطعاً دافئة تظل تنتفض حتى تذوب في الخريف ... يلعق ابن آوى جراحها بحنان . أنا معبد خوف وشوق واشمئزاز ، لو أهوي !

يد على كتفي . أمي تضمني اليها . أدفن وجهي في صدرها وانشج ببؤس ممزق . تقول لي بتعاسة حقيقية : في البداية خشيت عليك من خداعه .. ولكني خشيت عليك أكثر من صدقه ...

لا أجيب . أظل انشج . أبلل صدرها بأساي المفجع ، تضمني بحنان وتقول : « هذه ليست نهاية العالم . أنت شابة وغداً » .. وأقاطعها بتحدٍّ ومكابرة وأنا أردد : مالي وله ؟ من قال انني أحببته . انه في سن والدي .. في سن والدي ...

من قال انني أحببته ؟


المدللون

جائعٌ هذا السوط القابع في قعر الدرج منذ عدة أعوام . الدم، عطش الأفاعي في رأسه إلى رائحة الدم. يدها المتشنجة تتحسسه بعد أن أطفأت نور غرفتها وتأهبت لمغادرتها .. تحن إلى أن تروي ظمأه .. أن تلسع ظهراً معروقاً أسمر ... السوط ! .. هدية أمها ... متى تعود أيام نشوته ، فيتلوى مخموراً بالدم الحار ... الدم ... تغلق الدرج وتخرج من الغرفة تفكر ..

« يا إلهي ! دع المساء البربري يغرق الوادي ويلعق عرق التافهين عن الدروب ، كي يجيء لؤي من قصر أبيه في الوادي القريب ، ويجلس أمامي بوجهه الهش القاسي ، نتحدث عن اللوحات ، والعقد النفسية ، والكتب التي اجتررناها ، نفلسف الأشياء ، نتلذذ في حوارنا الارستقراطي العقيم لأن الفلاحين البلهاء في الوادي لا يفهمون شيئاً من حديثنا » ...

هذا ما كانت تردده وهي تهبط الدرج بعد خروجها من غرفتها متجهة نحو القاعة الكبرى في قصرهم الريفي ، لتخترقها في طريقها إلى الشرفة المطلة على حقول شاسعة مرمية بين سواعد جبلين ، ستجلس كعادتها مع أبيها في كل أمسية .. تتأمل وجهه بفضول وغيظ حيوان أليف ، وتعيش دوامات ذعرها وخيبتها وحيدة ..

تصل إلى القاعة . ترتعد قبل أن تدفع بابها . تدخل .. لو ان الظلمة تتمدد فتحجب عن ناظريها المرايا التي تطلي الجدران بطريقة خاصة كثيرة الزوايا ، توحي للانسان المنفرد في القاعة بأن مئات من الصور المشابهة له بكافة الزوايا والأوضاع ، ومئات العيون المذعورة تطل عليه ..

تتساءل كما تساءل الفلاحون طويلاً :

« لماذا جاءت أمي بهذه المرايا كلها من المدينة بعد ما هجرتها لتتزوج أبي ؟ ما معنى مئات العيون التي تطل من كل ركن وزاوية ، تتأملني والخوف يأكل منها ؟ ماذا كانت تعني بالنسبة إلى أمي ؟ لماذا كانت ترقص أمامها وتنشد فتتلألأ الثريات وتتقاذف المرايا أضواءها فتتضاعف آلاف المرات وتسقط على خيالات لمئات العيون التي تحدق باعجاب .. سراب .. لم يكن في الغرفة سوى أمي وعيني أمي واعجاب امي ! »

تخرج من القاعة الجهنمية بعد أن تعدو خلالها دون أن تنظر حولها . شبح أمها ما زال يرقص أمام عينيها ويغرقها برعدة عجيبة ... ذات يوم ستحطم هذه المرايا بوجهها .. بكفها .. ستفتح نوافذ القاعة الرهيبة لتخرج من جوها الخانق ضحكات أمها الشيطانية العذبة التي طالما خافتها ... لشد ما تكره تلك الأيام ، حينما كانت تقبع على أرض الغرفة لأن ساقيها كانتا أقصر من أن تسمحا لها بالصعود إلى أحد المقاعد بلا معين ، واهتمام أمها كان منصرفاً دائماً إلى ترتيب ثوبها الحريري الأحمر الذي تألقت فيه ذات مرة كأشهر غانية في عاصمة البلاد ، هجرت نظرات الاعجاب لتتزوج أغنى ملاكي الأراضي الشاسعة .

كانت تقبع وتتأمل دورانها ورقصها بين المرايا .. بين آلاف العيون المعجبة التي تزودها بها مراياها الكاذبة ..

طفولتها لم تكن تسمح لها بأن تدرك أكثر من ان أمها تتعذب . لم تستطع أن تفهم يومئذ خيبتها بزواجها .. فشلها كلما حاولت امتصاص سراب الاعجاب من صحاري عقم المرايا التي تتمسح بها . لكنها كانت تشعر بمعنى البؤس الحقيقي حينما تتعب أمها من الابتسام والدوران كتعب نحلة استجدت طويلاً زهرة اصطناعية ، فتهوي إلى الأرض وتتشنج بأسلوبها الهمجي الممزق ..

كل ما تذكره بوضوح مرعب الصفاء كرويًا حوار دار بين أمها وأبيها منذ أعوام طويلة .. تذكر انها كانت تتجه نحو القاعة المرعبة حينما سمرت أقدامها صرخات أبيها بأمها : لماذا تزوجتني إذن ؟ ما هذا الجنون ؟

ـ ظننت انك كنت ستمنحني الحياة التي أتمنى ... وستبتاع لي داراً في المدينة .. لكنك فلاح جلف .. لا تعرف كيف يحيا السادة ..

ـ لم أخدعك منذ البداية .. حدثتك عن أسلوبي في العمل .. عن حبي لأرضي ورجالي ..

ـ ظننته أسلوبك في الغزل .. لم تخبرني بأنك ستسجنني

ـ لم يخطر لي ان اتقاسمك مع الناس ..

ـ الناس ؟ انهم موجودون بيني وبينك كما لم يكونوا أبداً من قبل ! .. هنا .. في هذه المرايا .. في عيني .. أبداً سيقفون بيني وبينك ...

ـ على الأقل ، كفّي عن نوبات جنونك في هذه الغرفة الرهيبة لأجل ابنتك ..

ـ أجل ! ابنتي .. قد لا تكون ابنتك ...

ـ اخرسي ... أين جزمتي ... سأخرج للفلاحة ..

بعد هذا اليوم بمدة قصيرة اختفت أمها . سمعت خادمتين تتهامسان في المطبخ بأنها جُنّت وتقرر نقلها إلى مكان بعيد وماتت قبل أن تجتاز السيارة الوادي !

عجيبة هي تلك القاعة . كأنها خزان الماضي الذي ينفجر على غير ميعاد . يجب أن تبعد هذه الخيالات عن رأسها كي تكون قادرة على تنفيذ ما اعتزمته منذ أسابيع . الليلة فقط وينتهي كل شيء .. الا .. الا إذا جاء لوي ..

نسمات الغروب الدافئة تهب على وجهها . منظره من الشرفة رائع . أبي مسترخ على مقعده كأن شيئاً لن يحدث الليلة .. كيف سمح لهم بالاحتفال

أمام دارنا الكبيرة ؟ ألا يفهم انه احتفال بتجريدي من التاج الذي اورثني اياه أمي ؟ ..

أبوها لم يحيّها . ينظر اليها بكثير من الأسف . ينهض . يستند إلى افريز الشرفة مولياً إياها ظهره . ستنتقم . لماذا لا يخيم المساء بسرعة ومضة برق ويتم كل شيء فجأة ؟ تهبط درجاً في احد جوانب الشرفة وتسير نحو الحقول القريبة وبيوت الفلاحين الصغيرة الملتفة حول دارهم الكبيرة . كم تكره ساعة الغروب . يخيل اليها انها لحظة هاربة من عالم الفناء تخيم بجوها على الوادي بينما يحتضر النهار . خليط موحش من أنين حيوانات كثيرة يمزق أذنيها بكآبته الدخانية . المواشي تصرخ كأنما تصلب على زند الضياء الذاوي . يجب ألا أبتعد كثيراً . تلتفت إلى الوراء . القصر يبدو مهزوزاً حزيناً كوجه بريء غسلته حبات دموع ومطر . افريز شرفته ذو الدوائر السود يلوح لعينيها كأفواه وحوش حائرة . كعلامات استفهام عبثاً تستجدي من الأفق أي جواب . الشمس تموت وتحيا بصمت . وعلامات الاستفهام تظل أبداً بلا جواب .. كيف انتزعوا هذي الحقول مني ؟ .. هذه الاشواك والاطفال والاشجار والنساء والاحجار كانت إلى عهد قريب لي أنا .. وحدي ..

تحدّق إلى عيون الفلاحين العابرين أو الجالسين أمام دورهم تستجدي نظرة مهانة أو ضعف فيها .. لم يبق للضعف مكان في الوادي .. هذا ما تقوله الوجوه المشرقة النظيفة التي تمر فيها .. هذا ما تقوله أكوام السنابل التبرية ..

تظل تتجول . تطأ التراب ببلادة كأنما تحصي ذراته ، كما يتفقد المجرم الموضع الذي اعتزم أن يدفن سكينه فيه .. ليتها تحرق كل شيء ولا تجبن هذه المرة ... وعيها اللامجدي انها ستموت في هذا الوادي منسية كأمها يحرك في نفسها عقارب سوداء .. ستذرها الرياح كأنها لم تكن .. انها عاجزة عن الهرب من هوة حقارتها التي تشدها إلى أعماقها الصديدية بقدرية عجيبة . لا صديق لفشلها سوى لؤي .. أما إذا رحل ونفذ ما ظل يتشدق به منذ أشهر

فستنفذ هي أيضاً ما عزمت عليه .. وستأخذ معها كل شيء قبل أن ترحل إلى .. إلى التراب .

تشد نظراتها عن الارض كأنما تريد أن تهرب بنفسها من فكرة الموت . تطلقها نحو الجبلين المحيطين بالوادي . الجبلان فكّا كماشة تطبقان على الوادي وعلى القصر وعلى جانبي رأسها وتضغطان بقسوة عجيبة .. وجه أبيها يطل على أراجيح سأمها ورتابة أيامها كلما عادت بنظراتها إلى شرفة القصر ، ورأته واقفاً بوجهه القوي سنديانةً لم تحن رأسها ولولة الرياح . لم تستطع أن تحدد لوجهه عمراً .. مذ عرفته وهي تراه هكذا .. قوياً عتيقاً كصخور الجبل .. عاري الاعماق والاشواك كالصبار الذي ينبت عند حدود الارض الشاسعة التي كانت أرضهم ..

الفلاحون الذين يمرون بها يحيونها ببراءة تزيد في غيظها . كانت تحبهم يوم كانت تعتبرهم عبيداً لها . يوم كانوا بعضاً من حجارة شطرنجها وحليها وأدويتها .. ترى ان بعضهم ما زال يعمل ، يتحدى الشمس التي تهبط لتستريح .. خادمها القديم لم يشعر بها حينما وقفت بالقرب منه ترقبه بينما هو يهوي بفأسه على الارض التي أضحت أرضه في ضربات هادئة لكنها واثقة ومنتظمة .. ظهره الذي أحنته أحزان أيام سود ، وأثقله استسلام أبله متوارث لمصير هوامي أضحى الآن منتصباً .. كأنها لم ترو سوطها عشرات المرات من أخاديد دامية حفرتها فيه .. تتأمله . تتأمله في لحظة صدق هي كل ما يربطها بالانسانية .. انه رائع . وديع الملامح حلو القسمات ، أسمر كأنما غسلت وجهه وزنديه خمرة الشمس . عيناه صافيتان كنبع ، كأغنية الفلاحة التي سمعتها منذ لحظات تهدهد وليدها .. كم هو لذيذ أن تهدهد امرأة طفلتها . أغاني أمها كانت مرعبة وثقيلة .. اشهر غانية عرفتها البلاد فشلت في هدهدة ابنتها ! .. تذكر انها كانت تغني لها في شبه قسم وثني محموم تفوح منه رائحة دماء حارة وتقول :

– ستكونين يا صغيرتي .. ملكة هذا الوادي .. هديتي لشبابك سوط علقته على جدار غرفتك .. سيكون لك .. عندما تكبرين وتناله يدك ..

ما الذي يظل يشدها إلى التفكير بأمها ؟ ما الذي يشدها إلى مراياها وحكايا ذعرها ؟

قد تلقاها بعد ساعات .. ستحمل لها معها رماد هذه الارض . أكوام السنابل . السوط . المرايا . مئات الاعين التي تطل منها . هشيم الاطفال .. ستفجر الحركة في موات الخشب والاشياء الجامدة عندما تحرقها ... ترقبها تطقطق في اللهب . تتلوى وتئن كأنما دبت الحياة فيها .. تفوح رائحة الاهداب والمقل المشوية عند أطلال القصر السود . القصر . ترفع نظراتها عن الفلاح الذي ما زال يعمل دون أن ينتبه لوقفتها . تنظر إلى القصر . ترتعد .

ترى ان أباها ما زال مسمراً إلى افريز الشرفة .. غامضاً .. يطل على خواطرها الرعديدة كسنديانة لم تحن رأسها ولولة الاعصار .. لماذا يكون أبوها قوياً هكذا ؟ وهل هو أبوها فعلاً ؟ لم تشعر بذلك قط .. أمها علمتها أن تكون سيدة . أن تشرب أدويتها المرة . أن تتقبل شك أبيها فيمن يكون والدها الحقيقي بتجاهل . ان تتلذذ بذل الفلاحين . تمتص فقرهم وتعاستهم بجوع علقة .. وأمها منحتها أيضاً يوم ولادتها هدية حملتها لها تذكاراً من حياتها الماجنة السابقة .. قالوا إن أعضاءها ستتساقط أمام عينيها ذات يوم ، الواحد تلو الآخر .. قد تسقط يدها على السلم بينما هي تصعد في الليل إلى غرفتها ، فتتعثر بها وتهوي .. قد تسقط أناملها وهي تتحسس السوط مسعورة مشتاقة .. قد تسقط عينيها في الصحن بينما هي تأكل بنهمها المعروف فتمضغها خطأ .. آه .. لماذا تكون أفكارها مرعبة هكذا ؟ لماذا تزوج أبوها هذه المرأة بالذات ؟ أبداً لم تحس بأنها تنتمي اليها .. أبداً لم تشعر بأنهما اتحدا في لحظة ما .. انها بلا ريب ابنة احدهما فقط ..

تغص عندما تبلغ هذا الحد من التفكير . تظل تحدق إلى توتر عضلات الفلاح الذي يعمل أمامها ومعوله الحديدي يضرب الارض كأنما هو مرساة تبحث عن مستقر لداره وأمنه وأسرته .. أضحى له في كل بيدر مرساة راسخة .. في كل سنبلة شبراع اطمئنان .. انه يسند معوله إلى الارض . يرفع رأسه ليلتقط أنفاسه لحظة . صدره يعلو ويهبط بجلال فرس عربي يتبختر .. لقد رآها . يبتسم . يحييها بوداعة . لهجته العادية تصفعها . يمد يده لمصافحتها . شيء عجيب في عينيه دفعها إلى أن تصافحه رغم اشمئزازها . جلده خشن يكاد يدمي أناملها المريضة . ذرات التراب في يديه تلتصق بمسامها تدمغها بقداسة مجهولة لا مفر منها .. تحاول أن يبدو صوتها طبيعياً وهي تجيب على أسئلة عن صحتها .. لماذا أعادوها انسانة يمكن لخادمها السابق أن يسألها عن صحتها .. كانت هي ملكة الوادي ذات السوط الأسود .. كريهة .. لكن أحداً لا يشك في قوتها ولا يخطر له السؤال عن صحتها ..

العملاق عاد إلى عمله . تلحظ فجأة انه يقتلع نبتة خضراء ضخمة واطئة التفت أذرعها الاخطبوطية حول شجيرة صغيرة رفعت رأسها إلى السماء بكثير من الاعتزاز .

– لماذا تقتلعها ؟ إنها خضراء نامية ..

– لا فائدة منها فهي سامّة وعقيمة .. ثم انها تتغذى من عروق هذه الشجيرة التي تكافح جذورها من أجل الماء وتكافح أوراقها من أجل الضياء ..

– ولكن ..

تصمت مذهولة ، تتأمله برعب فقد رمى بمعوله وأمسك شجيرة العليق بكلتا يديه وانتزعها من الارض بينما تطاير التراب كالشرر .. لا تدري ماذا يخيفها في المشهد . يخيل اليها انه ضخم جداً كعملاق اسطوري بينما هو يهتف بقسوة وقد التمعت أسنانه البيض : انظري .. هذه الضخامة

كلها .. لكنها بلا جذور .. بلا جذور .. تمتص من عروق الشجيرة الطيبة ..

يضحك . بلا جذور . يلوّح بالعليق في يده . شيء غريب يغور في صدرها . بلا جذور . تريد أن تمد يدها وتنتزعها منه . يدها ستسقط . قالوا انها مريضة . يدها ستسقط وتتعثر بها . بلا جذور . أعضاؤها بلا جذور .. ماذا يشدها إلى هذه النبتة ؟ ماذا يغيظها منه ؟ يلوّح بها أمام وجهها . لم تعد تسمع شيئاً . آه يده كم هي كبيرة .. في حركاتها ثورة زنجية .. بلا جذور .

لو تهرب . لو ان ساقيها لا تسقطان . لو تحملانها ربما تحرق كل شيء . انها الظلمة قد خيمت . لو تبكي .

تنطلق نحو القصر راكضة . العليق يلتف حول عنقها . القبضة الزنجية تضغط عليه . تركض . تتحسس رقبتها . يا لأوهامها . كيف أخاف ذلك الوغد الذي طالما روى سوطي ؟ ستنتقم . تصل إلى القصر . تصعد السلم . أبوها ما زال مسترخياً . وانت أيضاً يجب أن تموت معهم .. الاشياء تشدك اليهم أكثر مما تشدني . السنديانة ستلتهب الليلة . ليتني لا أجبن هذه المرة ..

تنادي خادمتها :

— هل وصل لؤي ؟

— لم يحضر يا سيدتي .

ممزقة ، بسمة السخرية المرتسمة بين شفتي ابيها ممزقة . لماذا يسخر ؟ يفتح شفتيه ليتكلم : لؤي رحل ! ..

— رحل ؟ لا أصدق .. إلى أين ؟

— رحل إلى المدينة .. قرر أن ينتسب إلى إحدى المدارس ! ..

— هذا غير صحيح ..

— وأرسل لك هذه الهدية ..

— ماذا ؟ .. سوط !.. أيسخر مني هذا المنافق ؟ ..

– يبدو انه أدرك ان القمر لا يطارد بشبكة صيد ، أو سوط مثلاً ، لماذا لا تدرسين أنت أيضاً وتفعلين مثله ؟

تدرس ! .. بماذا ؟ بأدويتها ؟ بسأمها وذعرها وضعفها ؟ بعينها التي قد تسقط ذات ليلة بين سطور كتابها ، ويدها التي قد تتحلل قبل أن تلتقطها بها لتعيدها إلى مكانها.. انها ملكة الوادي .. لا تحسن إلا استعمال سوطها .. لوثي هرب .. أنا بلا جذور .. اعتدت على أن أكون بلا جذور .. لن أجرؤ على مواجهة الشمس .. في صدرها بركان . حمم تتناثر . الحقد . الكراهية . الانتقام .. الفلاحون يتجمعون أمام الدار منشدين وقد أشعلوا المشاعل والفوانيس المتوهجة . السنابل تلتمع . تميس في نسيم ليالي الصيف . لماذا يطردون الظلمة ؟ وجه أبيها ينبسط عن ابتسامة ما .. بعد لحظات ستنسل لتحرق كل شيء .. لم تعد تخاف شيئاً ..

أبوها لم يتحرك .. انهم أعداؤك يا أبي .. لقد سلبونا أراضينا وحقوقنا .. أمي كانت عاقلة يا أبي .. جبارة .. للمرة الأولى ستفعل شيئاً تعتقد أن أباها يتمناه . دمعة في عيني أبيها . أمطار العالم كله ما ملأت التراب بنشوة كما لذت لها تلك الدمعة .. إذن يكرههم مثلها .. هو الآخر بلا جذور .. الآن ستحرق كل شيء .. ستلهب سوطها وتدسه في البيادر .. ستشعل النيران في نفسها وتتلوى بين السنابل .. أبوها ينهض .. إلى أين ؟ لا يجيب .. يسير منتصباً في الشرفة نحو الدرج .. الفلاحون يرقصون (الدبكة) في حلقات .. الفلاحات ينشدن ويدرن كجنيات الصيف .. يضئن كيعاسيب المروج .. الاطفال يهللون .. رائحة التراب عجيبة كأن ذراته تخفق وتضطرب وتسجد .. أبوها يهبط السلم . انهم يهللون .. إلى أين يذهب ؟ هل ينوي طردهم ؟ هل يريد احراق كل شيء بيديه .. يحيطون به كالطوفان . يعانق أقربهم . انه فلاح جلف . يعانق بحرارة . يهللون . انه يبكي فرحاً . يضمونه إلى صدورهم . يدورون حوله .. يرقص كصغير وجد طفولته الضائعة ..

خادمها يهتف وفي يده شيء أخضر .. ماذا ؟ .. شجرة العليق . بلا جذور . يضحكون . أبوها يغني معهم . شجرة العليق رمى بها .. تحت الاقدام .. بلا جذور .. يمزقونها .. آه .. رأسي يؤلمني .. لماذا يدوسونها .. يدي تكاد تسقط .. ساقاي تنحلان .. لماذا يدوسونها .. بلا جذور .. غرباء .. كل ما يضحك غريب عن عالمها . الاناشيد التي تفيض صحة وشباباً غريبة عن عالمها . أين هي ؟ لا تدري .. ماذا يحدث حولها .. لماذا تتطاير السنابل في الجو .. تمزق خدبها .. تهرب من الشرفة إلى الداخل .. غرفة المرايات تستقبلها .. ملايين الاعين تطل عليها صفراً مذعورة ذات خطوط حمر ناتئة .. العليق ينمو في جوانبها ويتسلل نحوها كأخطبوط مرعب .. جذورها القصيرة الدودية تزحف على بلاط الغرفة . لا تستطيع أن تدافع عن نفسها لأن يدها ستسقط . السوط .. أين السوط ؟ .. ستحضره ..

المهرجان أمام القصر كان رائعاً .. احتضنوا رجلهم الفرح بهم .. كان له في كل عملاق ابن ، لثم ظهورهم .. لثم آثار سوط ابنته . سجد للقوة لأنه قوي . لأنه ليس بحاجة إلى ضعفهم .. لأنه عمل معهم ذات مرة بساعده .

المهرجان ظل مستمراً لأن أحداً لم يسمع صرخة الذعر التي أطلقتها إحدى الخادمات عندما دخلت قاعة المرايا المرعبة ووجدت أن سيدتها كانت ترتدي ثوباً حريرياً أحمر عتيق التصميم .. وتدور بين المرايا مجنونة لاهثة تضربها بسوطها والزبد يفور من فمها كما فعلت أمها ذات مرة .. قبل أن تختفي من الوادي .. إلى الأبد ..

هاربة من منبع الشمس

ما زلت في أعماقي ..
تمسح الطين عن جسدي بأهدابك !
ما زلت في أعماقي ...

النجوم تفور من منابت شعرك فوق الجبين الاسمر وتنهمر فوق صدرك وهديرها أبداً يناديني .. يهتف باسمي ذائباً ملهوفاً ...

وأسرع في مشيتي ، أشد كتبي إلى معطفي ، وتظل أنت تتمطى في أعماقي ، والشتاء يتأوه في قطرات المطر التي تلعق وجهي .. وتظل أنت تهتف باسمي ، والريح تعول وتدور حول الاذرع الرمادية لاشجار متعبة تسندها ظلالها إلى جانبي الطريق .. والرعد يتدفق في اذني كصرخات دامية التمزق لامرأة ضائعة في صحاري شاسعة .

ما زلت في أعماقي تتمطى !

وأنا أنزلق فوق ظلمة الشارع ، ويخيل إلي أن برك الماء المتجمدة قد ابتلعت أنوار الجامعة التي خرجت منها قبل لحظات ..

وألتفت ورائي وكأنني أريد أن أتحقق من أنها فعلاً هناك .. المكتبة ، والمقاعد الخشبية في الحديقة ، والنادي المزدحم حيث التقيت زرقة عينيك الضالتين أول مرة ، يوم جئت تبحث عن أختك ، زميلتي في الصف ، وتطوعت أنا لأشاركك التفتيش عنها ... وأحسسنا بسعادة مبهمة ونحن ندور معاً من مدرج إلى مدرج ومن باحة إلى باحة فلا نجدها .. ونتبادل الحديث بعفوية لذيذة كأي صديقين قديمين ..

كم كانت أختك رائعة وكريمة ذلك اليوم ! .. لقد اختفت .. لم نجدها بالرغم من الساعة التي قضيناها منقّبين ، والتي انتقل البحث في دقائقها الاخيرة من القاعات إلى وجهينا ..

وشدتني إلى عينيك كآبة حنون ، مغرية الدفء كلهيب موقد يلوح لضائع بين الثلوج من وراء زجاج نافذة ... تنهدت بارتياح لما لم نجدها ، وعرضت عليّ تناول كأس من الليمون في النادي ريثما نستريح ونعاود البحث من جديد .. وجلست أمامك .. أشرب من ملامح وجهك وأختزنها في أعماقي بحرص بينما أنت تحدثني ببساطة وانطلاق عن رتابة ساعاتك .. عن جلستك البلهاء كل أمسية وراء زجاج المقهى وتشابه أيامك .. كيف أن السبت يمكن أن يكون ثلاثاء أو اربعاء بالنسبة اليك .. الاشياء التي فقدت طعمها ولونها والايام التي أضاعت مدلولها ..

وظللت أعب من كأسي وفرحة جديدة تعربد فوق المنضدة وتنثر شعرها اشعاعات سعادة في كل ما حولنا .. حتّى في نظرات زملائي المرتابة التي بدأت تنتقل من وجهي إلى وجهك بحدة وفضول ..

قلت لك ضاحكة لأخفي بعض ارتباكي : « انهم يحدقون الينا وكأننا .. حبيبان !! » والتقت نظراتنا بصورة غير عادية لما نطقت بكلمتي الأخيرة « حبيبان » ... لا أدري لماذا ارتعش صوتي مع انتفاضة أهدابك ، بينما رددت أنت عبارتي شبه حالم وكأن حجب الغيب قد انتهكت أمام عينيك : « كأننا حبيبان » . !

وظللت أتأملك مفتونة نشوى ، وكأنني اكتشف في أعماق عينيك مغارة مسحورة ياقوتية الجدران ، تومض كنوزها المكدسة قوس قزح وديع الهدوء ، يترسب في حواسي ، ويغمرها بخدر لذيذ .. لا يعكره سوى همسات الزملاء الذين ركزوا اهتمامهم على التيارات اللامرئية الهادرة بين مقلتي وشفتيك .. لذا لم أتردد في الخروج معك حينما اقترحت عليّ بصوت

مبهم النبرات أن نستمر في « البحث عن اختك » خارج الجامعة !

وارتميت شبه حالمة في زرقة سيارتك لنضيع معاً في شوارع المدينة التي لم تبد كئيبة كعادتها .. وأدركت انك بدأت تتسلل إلى أعماقي ..

ولما جئت مع مساء اليوم التالي ، عرفت انك لم تأت باحثاً عن أختك .. وأسندت وحشتي إلى سأمك وانطلقنا بها إلى الغوطة حيث وأدناها قرب خيمة ناطور أغرتنا نيرانه بالاقتراب منه والقاء التحية عليه .. وجلست ترقب رقصة الوميض على جانبِ وجهي ، بينما أنا أعبّ القهوة العربية ، والقمر يستند إلى جانب الخيمة حيناً ، وتختطفه ارجوحة الرياح الغمامية حيناً آخر ...

ما زلت في أعماقي ! ! .. تضحك زرقة عينيك لكآبتي . المنحنى قد غيّب الجامعة عن أنظاري .. والوحشة ترتّل أنات الفراق في دربي .. وأنا أسير إلى غرفتي الباردة واهذي ..

أمواج المساء لم تعد تنحسر عن ضياء عينيك .

بحاري الكئيبة لم تعد تترقب رنين مرساتك الذهبية في ابعادها السحيقة .. أسير ... وأتعثر وحيدة كطفل جائع في معبد مهجور ، ما زالت رائحة دم حار تسيح من جدرانه المرعبة ... وانت ... ما زلت في أعماقي ! تمسح الطين عن جسدي بأهدابك .. وصوتك الذائب ، صوتك الملون ما زال يعربد في عروقي مبتلاً بالمطر .. بمطر دافىء كان يغسل نوافذ سيارتك « الهائمة في غوطة دمشق » وتتمسك قطراته بالزجاج ، وتحدق بفضول إلى الداخل .. إلى حيث الدفء .. إلى حيث أنا وأنت ذرّتا رمل جمعتها العاصفة في شاطىء صخري .. وتظل حبات المطر تنزلق ببطء منصتة لهمساتنا ...

— اقتربي مني يا رندة .. اسكبي الالوان في الاشياء التي أضحت باهتة كالاشباح .. اضرمي النيران في وحشتي ففي نفسي جوع إلى النور .. ضمّي وحدتك وتشردك إلى لهفتي وفراغي ..

وأقترب منك .. ألتصق بذراعك الايمن وأرمي بأثقال رأسي إلى كتفك :

ــ مذ حضرت من بلدتي الصغيرة وانتسبت إلى الجامعة ومدينتكم وحش يخيفني ..

ــ ماذا يخيفك فيها يا حلوتي ؟

ــ لكل شيء طابع لا انساني هنا .. اسمع ضجيجاً وعويلاً لا أرى مصدره .. تنبع من الزوايا المظلمة صرخات بلا شفاه .. تتفجر من شقوق احجار الشارع دماء بلا جراح .. الزيف يلون كل شيء بكآبة باهتة صفراء ..

وفجأة توقف سيارتك وتلتفت إليّ وكأنما روّعتك حرقتي وأثارت حنانك .. وتتجمع قطرات المطر بفضول حول النوافذ كلها وتظل تنصت بينما أنا أهذي شبه باكية :

ــ كنت أخرج من الجامعة مساءً ، أدور في الشوارع وأبحث عبثاً عن ظلي . واكتشفت ان كل شيء في مدينتكم مزيف ، حتى النور الابيض الفاجر محروم من الظلال التي تكسبه مسحة حزن انساني مستكين ...

ــ يا غجريتي الصغيرة الضائعة ..

ــ كنت أصرخ بوحشية كلما كفّنني صمت غرفتي لعلّي آنس بالصدى .. ولكن الجدران بخيلة حتى بالصدى ! ! .. وأضربها بقبضتي .. أحاول أن أغرس اظفاري في أحجارها الصلدة .. وانشج .. وعبثاً انتظر أي وتد حقيقي في عدمي المريع .. لا ظل .. لا صدى .. لا شيء .. لا شيء حتى وجدتك ..

وتزداد اقتراباً مني .. ويخيل إليّ انك تريد أن تلتقط بشفتيك كلماتي المتعثرة فوق عنقي وذقني قبل أن تتناثر في فضاء السيارة الدافىء ..

ــ كنت أتشرد كل ليلة في دربي المقفر .. أحس بملايين الأيدي الخفية تضغط على عنقي .. تسمرني في الشوارع عارية تحت أسياخ المطر

الباردة .. تحملني من شعري بقسوة وتدلي بي في البرك الموحلة .. وتظل تنقلني بين الآبار المتجمدة وأتخبط في الهواء ، لا أقبض إلا على حزم الريح ، لا أقبض على أي شيء !

لا شيء حتى وجدتك .. ولن أفقدك لأي سبب في العالم ..

وأشدد قبضتي على ذراعك بينما تتحسس يداك ظهري وتبعثان رعدة دافئة في جسدي المنهك .. وتهتف بي :

– انك ترعبينني بهذه الأفكار ! ..

– بل انها ترعبني أنا بالذات .. لم أجرؤ قط على الاعتراف بها لنفسي وأنا وحيدة .. أما الآن .. وأنا أمام صدرك ..

وقاطعتني هامساً بحرارة :

– بل انت تغفين في صدري .. تتبعثرين في الدم الذي يتدفق في كل ذرة من كياني ..

ويسعدني دفء أهدابك التي تمسح الطين عن جسدي وأنا أهذي :

– كم تعثرت في برك الطين ولطختني الأوحال .. وأنا أحس ان قطرات المطر مدببة الجوانب وخزازة الحواف .. تنغرس في خدي بينما بردها الكاوي يلهب عذابي ..

– والآن يا رندة ؟ ..

– تبزغ شمس في كل قطرة مطر ...

وأشدك إلى صدري بكل قواي .. أفتتك ذرات ، وأسحقك ذرات ، وتنسل كل ذرة من إحدى مسامي إلى أعماقي .. إلى حيث ينضم بعضها إلى البعض الآخر من جديد ... واحس انك حي تعربد في الحنايا والضلوع .. وتهتف بنشوة :

– أيتها الغجرية الهاربة من منابع الشمس .. ألا ترين ان الصقيع أدماني ؟ ؟ ..

وأحدّق إلى الشعيرات البيض التي تسلّلت إلى شعرك ، ويخيّل إليّ ان ثلجاً لئيماً يتمسك بها .. وأحاول اذابته بشفتيّ الملتهبتين وأنا ألثمها شعرة إثر شعرة ...

وتبعدني عنك ضاحكاً ، وتمسك وجهي بكلتا يديك ، فتتألق حلقة ذهبية في بنصر يدك اليسرى طالما رأيتها من قبل ...

وأسألك بكثير من اللامبالاة :

– منذ متى تزوجت ؟

– منذ سبع سنوات ..

ماذا يهمني سواء كنت متزوجاً أم لا ؟؟.. أنا وحيدة .. وحيدة .. يدي المتخبطة في فراغ الذعر لن تسأل اليد التي تعلق بها : كم عمرها ؟ لمن كانت من قبل .. حسبي انها يد انسان .. حسبي انها يدك يا أغلى غال ..

ويخيل إليّ ان ذرات الظلام تتفجر حول شفتيّ ، وان قطرات المطر تقفز مذعورة عن النافذة وانا أسألك :

– هل لك أولاد ؟؟

– صبي وبنت !!

حاولت أن أرسم في ظلمة السيارة صورة لصبي وبنت يتعلقان بثيابك كلما دخلت دارك .. وزوجة تكشف لك طبق الطعام على المائدة ، ويتصاعد البخار فيغطي وجهها بينما تحوط يداك خصرها كأي زوج .. لم أستطع .. حاولت أن أخجل من نفسي أن أتذكر ما تعلمته في بلدتي المنعزلة .. لم أستطع .. خيل إليّ أن جميع أطفال العالم قد ذهبوا في حلقات متماسكة الايدي إلى كوكب سحيق البعد .. وان الطعام بارد على منضدتك .. وان زوجك لا تغري بالتقبيل .. وان يديك لم تخلقا إلا لتضماني هكذا .... هكذا ....

..... وتظل قطرات المطر تتمسح بزجاجنا منصتة .. وأبخرة الدفء تتكاثف في الداخل حتى لا تعود القطرات الفضولية ترى شيئاً .. وحتى لا

تعود تسمع شيئاً بعد أن تخفت همساتنا ، وتستحيل إلى قبل مكتومة .. فتهوي إلى التراب وتمتزج به في عناق وديع الاستسلام ..

.....وتنفض عن عشنا الأزرق ذرات المطر ونحن ننطلق من جديد إلى أعماق الغوطة ، إلى حيث تلوح خيمة الناطور ذي الوجه الباش والكلب الابيض الودود ... وتوقف هدير المحرك وأنت تسألني ككل ليلة :

— ما رأيك بفنجان دافيء من القهوة ؟

ويتلوى شبابي طرباً .. وأجيبك بفتح باب السيارة والقفز منها غير عابئة بالمطر .. وتركض يدي في يدك إلى الخيمة ونجلس أمام نيران الناطور طفلين في الغاب هربا من مذبح مرعب نذرا فيه قربانين لاله أحمر العينين .. وتتعانق نظراتنا بين أحضان اللهب الذي يزداد تأججاً .. والناطور يرقبنا ببهجة فطرية طالما افتقدتها في أعين العابرين من أهل المدينة . حتى إذا ما سرى في عروقنا دفء قهوته العربية ، عدنا إلى عشنا الأزرق حيث تلتقط بشفتيك حبات المطر العالقة بأهدابي .. ويغيبنا المنحنى الرمادي .. لماذا استعيد هذا كله الليلة ما دمت قد مضيت ؟ ..

أنا أعرف اننا لن نعود نلم الحنين .. لن نشرب القهوة العربية عند خيمة القمر .. لن تلتقط بشفتيك حبات المطر عن أهدابي ..

مضيت .. دون أن نتشاجر مرة واحدة .. دون أن نختلف في رأي .. كان كل شيء على حاله يوم افتراقنا ..

الطريق ينزلق بهدوء تحت عجلات عشنا الأزرق .. والاطمئنان يسبل جفنيه النديين على قلبينا ، وأنا أدفن قبلي بين عنقك وياقة معطفك ، وأغمغم ببساطة : لم تعد المدينة ترعبني منذ تمددت في زرقة عينيك .. ستكون لي أبداً .. أنت والمطر ، والقهوة عند خيمة القمر ..

— نكاد نصل يا رندة ، ارتدي معطفك . لا أريد أن يصيبك البرد . وانهض على ركبتي ، ووجهي متجه نحو المقعد الخلفي كي التقط معطفي

الذي رميته هناك كعادتي كل ليلة .. وفجأة .. أراها هناك ! ..

فردة حذاء طفل تبسم في وجهي بسخرية ممزقة ! .. فردة حذاء طفل منسية سقطت من قدم ابنك بينما زوجتك تحمله وهي تهبط به من سيارتكما ..

أجمد ! .. يغمرني خجل مذعور مفاجىء ...

وكعادتك تظل قابضاً على المقود بيدك اليسرى بينما تحوط خصري باليمنى وتجذبني إلى صدرك ضاحكاً مداعباً .. لا أغمر وجهك بقبلي اللاهثة .. أظل زائغة التعبير مجمدة النظرات إلى الوراء ، حيث ترمي ببصرك متسائلاً .. وتراها كما أراها .. لا شيء .. مجرد فردة حذاء طفل تبسم بسخرية ممزقة !!..

وأدرك انك تفهمني تماماً .. لا حاجة بي إلى الكلام ما دمت تسمع هذيان صمتي المحموم ..

توقف سيارتك ويخيل إليّ ان صوتك انبعث متعباً هدته الليالي وأنت تقول :

– لقد وصلنا .. هل أنتظرك غداً كالعادة ؟

وأجيبك ونظراتي مشدودة إلى فردة حذاء طفلك الساخرة :

– لا .. لم يعد ذلك ممكناً .. أليس كذلك ؟ ..

كان هذا آخر نقاش دار بيني وبينك .. لكني أحسست ساعتئذ ان الرياح قد حطمت نوافذ عشنا إلى الأبد .. ونظرت إلى صدرك ، إلى حيث تسحقني كل ليلة مودعاً ، وخيل إليّ ان جميع أطفال العالم عادوا منشدين من كهوفهم السحيقة ، وتبعثروا على صدرك ، بأطرافهم الشفافة وأجسادهم الهشة ورؤوسهم الدقيقة .. يكفي أن أحاول لمسهم حتى يتناثروا أشلاء بريئة بين أصابعي الدموية ومخالبي المرعبة .. وأردت أن تضمني مودعاً لكني هربت .. هل كنت تريد أن نسحق صرخاتهم بين جسدينا ؟؟؟ .. ان نلطخ أكتافنا وأذرعنا بطفولتهم الشفافة الدقيقة ؟ أما يكفينا عذابنا ؟؟..

ومددت يدي أصافحك ، وكان الصمت يهذي ، وكانت أعيننا تنضح

دموعها إلى الداخل .. إلى الاعماق .. وكانت ثورة شعري المبعثر تبكيك .. وكان عذابي ينشج بسكون ..

واختطفت معطفي وأنا أتحاشى النظر إلى فردة حذاء الطفل المنسية التي ظلت تبسم بوداعة دافئة حينما هبطت من العش الكسيح .. إلى الأبد ..

ولما ضمني برد غرفتي ، رأيتك بين أشباح السقف تدخل دارك الدافئة .. أطفالك يتمسحون بثيابك وأنت تنحني إلى الأرض لتدخل في قدم ابنك فردة حذائه الضائعة بحنان دفيق .. وتقبل زوجتك سمينة متدحرجة .. فتقبّل خديها اللذين تفوح منهما رائحة طعام شهي ..

ورأيتكم جميعاً بوضوح .. وأدركت انني لم أعد أستطيع انتزاعك من اطارك الحقيقي لأطير بك إلى مغاوري الفضية في جبال القمر .. لم أعد أستطيع .. ولكنك ما زلت في أعماقي !

تتمطى وتحدثني وأنا أخرج من الجامعة كل ليلة .. يبتلعني بحر الظلام الكئيب وتحملني أمواجه إلى غرفتي الباردة . أدرس أحياناً ، وأكتب الرسائل المطولة إلى أمي وأبي .. وأنت تنزلق بين الكلمات .. تستلقي على الحروف وتقفز فوق النقاط وتهمس بين السطور .. وانت تتسلق الصفحات وتظل زرقة عينيك تبسم ..

ما زلت في أعماقي .. تمسح الطين عن جسدي بأهدابك !

وأنا أسير وقد اختفت الجامعة تماماً .. البرق يلتمع ويضيء البقعة التي كنت تربض عندها بسيارتك منتظراً أن أصل إلى الأرض البوار ..

أسير بحذر وأشد كتبي إلى صدري والمطر يتسلل إلى جسدي .. وأنت ما زلت في أعماقي تهمس « اقتربي يا رندة ، في نفسي جوع إلى فجور النور » .. الدموع تتفجر في عيني وتضيع مع المطر المتدفق .. موضع عجلاتك الراحلة يهذي .. ينهش من قدمي وأنا أمر وامزق الذكريات مع ضربات حذائي .. وتصرخ يدي .. تريد أن تمتد لتفتح الباب كما كانت تفعل ..

وتصرخ قدماي .. تريدان الصعود إلى دفئك الملون .. ويصرخ جسدي حيث طحنتك ذرات تسللت من مسامي إلى أعماقي وتتلوى نظراتي .. تحن إلى التمسح بالشلال الازرق الهادر من العينين .. ويظل صوتك يهمس من أغوار سحيقة مرعبة : « غجريتي اهاربة من منبع الشمس ، ألا ترين ان الصقيع أدماني ؟ » وأحس أنني ظمأى .. ظمأى لشفتيك تجمعان المطر عن أهدابي .. ظمأى لخيمة القمر وقدح القهوة الدافىء وضحكاتنا الغجرية في كبد الليالي .. أنا ظمأى اليك وانت تتمطى في أعماقي ببساطة مرهقة !

غربان القدر تنهش عيني الناطور قرب خيمته الممزقة .. رياح الشتاء تذرو رماد نيرانه .. والامطار تغسل الحمرة عن جمراته حيث تترسب ليالي العذاب سوداء فاحمة .. الرمال افاع تزحف لتغطي كل شيء .. الكلب يعوي في الخواء منتحباً . وأنا هنا .. وقد عادت الايدي الخفية تضغط على عنقي .. تسمرني في الشارع عارية تحت أسياخ المطر .. تحملني من شعري بقسوة وتدلي بي في البرك الموحلة والآبار المتجمدة .. وأشد وشاحي إلى رأسي .. أشده .. وأظل أشعر بأن الايدي تجذبني من شعري .. وأمضي إلى غرفتي .. لا أحلم بأكثر من جدران لا تبخل على وحشتي بصدى ..


الهاوية

آلة بلهاء كنت وراء منضدتي الحديدية ... تعاطف مبهم بيني وبين أنين الآلة الكاتبة التي تضرب عليها زميلتي سلوى ... يدي اليسرى تتحسس شعري الطويل الخشن بينما تتحرك اليمنى على الورق وتكتب : « الشعر القصير يا سيدتي موضة هذا الشتاء ، إذا أردت أن تكوني قبلة الانظار » ، يتوقف صراخ الآلة الكاتبة فجأة فأنقطع عن الكتابة بحركة غير شعورية . ارفع إلى زميلتي عينين يرقص فيهما سؤال حائر : « ماذا حدث » ؟

تقول بلهفة : « انها التاسعة .. انتهى الدوام » تفتح حقيبتها . تستلّ منها مرآة ومشطاً . تسرح شعرها ... انتفض جسدي بعنف حينما رأيت المرآة .. تشاغلت عنها باتمام ما كنت أكتب .. غداً تصدر المجلة ، يجب أن أنهي زاوية المجتمع الراقي .. عدت أكتب بينما أعماقي تتمزق في حشرجة وحشية الصرير .. نانا شربت الشاي في محل انطون وكانت ترتدي ثوباً من الدانتيل المطرز بـ ... صوت حاد يداهمني . أتوقف عن الكتابة . نظرة واحدة . أدرك انه صوت تحطم المرآة التي سقطت من يد سلوى .لفرط اضطرابها وتسرعها .. عبثاً تحاول الانحناء لالتقاط القطع المبعثرة إذ ان ثوبها ضيق يكاد لا يسمح لها بالمشي .. عيناها تفصحان بجلاء ان صديقها يتسكع الآن أمام باب المكتب منتظراً خروجها بينما هي في حيرتها وقلقها . صوت خشن يتسلل من جوفي : « اذهبي انت .. سأتولى أنا جمع الحطام » تنقضّ عليّ قبل أن تندفع راكضة خارج الغرفة وتقبل خدي بجرأة وبساطة أذهلتني ... خرجت وبقيت وحدي أتحسس مكان قبلتها بينما يتمطى جرح في أعماقي

ويستيقظ .. لم يقبلني أحد منذ زمن طويل، منذ خلعت الحلقة الذهبية من اصبعي ووضعتها في يد نبيل بائسة مهزومة ..

أنحني على الأرض لأجمع حطام مرآة سلوى .. في إحدى قطعها المدببة الأطراف — على الرغم مني — جزء من وجهي .. انتفض وأنا أتمتم : آه كم أصبحت قبيحة .. راحة نسبية تغمرني وأنا أرمي ببقايا المرآة من النافذة المطلة على الشارع الكبير بينما تجمد نظراتي على أنوار الاعلانات التي تضيء وتنطفىء ثم تضيء في تكرار ممل يبعث على الغثيان ..

الشارع يبدو سحيقاً مغرقاً في البعد .. تتحرك فيه قطعان ضالة تسير بسرعة وكأنها تصر على استنفاد كل ثانية في ضياع تام .. إلى أين يذهبون ؟ ماذا في الدروب سوى الخيبة والعبث ؟ لماذا يتدافعون ؟ ماذا في الدروب غير الصقيع والوحدة .. إلى أين .. لنبش الرمال عن مدارات الشمس ونهب كهوف القمر .. وماذا بعد ؟ لا شيء .. لا شيء سوى غرورنا المغرق في الوحشة وكبريائنا الجوفاء المتماسكة الملطخة باللوعة ..

أغلق النافذة . أعود إلى مكاني وراء المنضدة .. أكتب الآن عن افتتاح نادي محبي التشاتشا .. إنه خبر مثير سيسر له المدير .. أصف الآن حذاء ومحفظة السيدة رئيسة النادي . لن أذكر شيئاً عن ضيقها حينما شوهت الحفلة بمنظر الأطفال الذين تجمعوا حول سور الحديقة حيث نثرت الموائد والأطعمة يرهقون الآكلين بعيون تعول بالجوع والفضول فيها .. لن أذكر هذا كله فأنا بحاجة إلى عملي . الاشمئزاز يتلوى في ضلوعي .. لم أعد أستطيع الكتابة .. أخرج من المكتب وانتظر بشوق قدوم المصعد لأهبط به .. لقد وصل .. أدخل . أنا هنا وحيدة في علبة كالتابوت الخشبي . لا عين تشمئز لمرأى دمامتي .. وحدي أنا وجدران البناء الراكضة نحو الاعلى .. أشعر بلذة مبهمة وأنا أهوي في التابوت العجيب .. يتبدد ارتياحي حينما أهوي بنظراتي على مرآة في أحد جوانب المصعد ورأيت نظرات ارنب مذعور تطل من عيني ..

آه .. ما أقبح وجهي .. الشق الطويل الغائر في الخد الأيمن واللحم الممزق المتماسك قرب ذقني والمعجون بما كان يدعى شفتي السفلى .. أنفي المحطم وجبيني المسلوخ .

لماذا توقف المصعد هكذا سريعاً ؟ ليتني لا أفتح بابه أبداً .. ليتني أهوي في هذا التابوت إلى أعمق أعماق الجحيم حيث يكون كل شيء أقبح مني ..

أفتح باب المصعد ببطء ينطق بالاسى .. يبتلعني الشارع المزدحم .. يمر بي شاب وسيم ويشيح بوجهه عني بتقزز مدمر .. كأنني لست من البشر . تكاد دمعة تجول في عيني وتشوه مظهري . يجب أن أكون قاسية قسوة القبح في وجهي ..

الوحدة تعول في كياني .. الظلام يتفجر من صدري ، ينسكب في دربي ويغمره بصقيع رمادي .. الوحشة تتمطى في أحداقي .. السأم ذئب أصفر يعوي في دمي .. إنني أضيع في الشوارع النحاسية المضيئة حيث يتحرك كل شيء بسرعة مجنونة .. الناس .. الحافلات الكهربائية والاعلانات الملونة التي تنسكب في بردى المنسل بهدوء .. أذناي تمتصان ضجيج العالم كله .. الحركة المسعورة تلطم رأسي . الأصوات المجنونة تنسل في عروقي وتتفجر لوعة من مسامي وحرقة من شعري واظافري وضلوعي .. إنني أضيع .. أتلاشى .. أتلاشى في الصخب الابله ..

دوامة المدينة اللامبالية تسحقني .. العيون الوخازة تنزلق على وجهي بذعر .. يخيل إليّ ان جميع أضواء سيارات المدينة تسلط عليّ عمداً .. لتزيد آثار جراحه وضوحاً وتكشف دماميّ وقحة بعريها ..

ما زلت أتخبط في الدروب .. ها هو ذا مقر نبيل يلوح في آخر المنحنى البعيد .. لا ريب في ان بابه مفتوح وكل شيء معدّ لاستقبال زوار معرض تماثيله .. كم سرت في هذا الدرب صبية حسناء .. يتأوه الشبان لمرأى سفوح الجليد الملتهبة الغائبة في حنايا ثوبها الشفاف .. لوجهها الطفولي والنظرة

المعطاف .. كم جئته بعد الغروب قطةً تنتفض جوى وتذوب تحناناً .. كنت أجده بانتظاري عالماً من شوق مشبوب يغيبني في الحنايا ويكاد يسحقني بين الضلوع .. كان يعبد تقاطيعي المتناسقة الجذابة ... يقضي الساعات الحارة ونظراته تتحسس شفتيّ والغمازتين في خدي ثم تلف حول رقبتي وتنحدر متسللة في رحلة عطرية لتنهب وتلمّ ما حلل الثوب سخي العطاء لها .. ثم أجلس أمامه بينما أنامله المبدعة تبعثني حية في كتلة من طين وتنحت خلود جمالي في تمثال صغير لرأسي الصغير .. ظل عشرة أيام ينحت حتى جاءت اللحظة التي صرخ فيها بحرارة مجنونة : بربك أنطق أيها التمثال .. عشرة أيام ... لهف روحي .. ليتها كانت دهوراً .. كانت لحظة خالدة .. ساعة صافحته مودعة بينما كانت كل جارحة من جوارحي تضحك وتقول : « أي وداع يا كاذبة ! هذي بداية اللقاء » .. استبقي يدي الصغيرة بين يديه .. نظرت في عينيه متجاهلة متسائلة وأحسست ان كيانه يتسلق نظراتي ويتسرب إلى داخلي .. رعشة دافئة متجاهلة تبعثرت في كل جزء من جسدي .. لذة مبهمة تأوهت في أضلعي وشعري وأظافري وجلدي وكادت تقفز من مسامي .. جذبني إلى صدره وشفتاه تهمسان . ستكونين لي يا حسنائي الصغيرة ، سنعلن خطبتنا الليلة ..

هلعي يزداد كلما اقتربت من المرسم ببطء ذليل . اتشاغل عن منظر فردوسي المفقود بالتحديق إلى المارة . في أقصى الرصيف يسير صبي كواء يحمل ثوباً فاخراً .. انه يتمسح بالجدران الرمادية كأنما يريد أن يخفي قميصه الممزق . في مشيته انطواء مبهم يجذبني اليه .. بحركة غير شعورية أتجه نحوه لأسير بقربه .. تترنح نظراته مرتاعة على خدي . يركض مبتعداً وفي عينيه ذعر بريء شديد القسوة بعفويته وصراحته . الذعر نفسه الذي ارتسم في عيني نبيل حينما جلس أمامي في المستشفى بعد أن مضى شهر على خطبتنا يرقب ما بقي من وجهي بعد أن رفعت الضمادات والأربطة عنه .. الحيرة .. والاشمئزاز والأسى نفسها . لم أنس أبداً تلك اللحظة حينما انسحبت يده التي كانت تضم

يدي وتسللت هاربة .. أدركت يومئذ ان كل ما يربطنا أضحى مجرد حلقة ذهبية ضيقة تحيط بإحدى أصابع يده اليمنى .. كانت لحظة دامية التمزق مفجعة الوحشية حينما انتزع الخاتم الذهبي من اصبعه كالمنوم وانطلق هارباً بدون أية كلمة ..

لم أكن بحاجة إلى مرآة لادرك حقيقة ما حدث ، ومضة نارية لمست مداركي ورسمت فوق وجهي بحروق من جمر ملتهب : دميمة ، مشوهة ، مرعبة .

إنني أتسكع أمام باب معرضه ولا أجرؤ على الدخول .. يمر بي شاب وفتاة . يده في يدها وعيناه تشربان من عينيها . سرت ذات يوم مثلها وانتهى كل شيء .. كم يبدو منظرهما سخيفاً ! كل شيء زائف وتافه . الحب .. الخلود .. لا شيء يبقى سوى ضعفنا وعجزنا . لا شيء في الدروب سوى الظلام والقلوب المزيفة والتافهة .. أقف أمام الباب .. كل شيء على حاله .. تمثال صغير لرأس امرأة يقبع في إحدى الزوايا وقد سلطت عليه أنوار حمر باهتة فبدا ملطخاً بالدم .. لا أستطيع أن أصدق انني كنت بهذا الجمال .. وهكذا بلا سبب تطحن الملامح الفاتنة بقليل من الزجاج المسحوق وصرير فرامل سيارة محطمة . ما أقسى جمال هذا التمثال .. إنه يدمرني . يفجر صقيع الحزن في أعماقي .. نبيل وشقراء ساحرة يقفان أمام التمثال يسند طرف ذراعه إلى قاعدته باهمال مثير بينما يتحدث اليها .. أنسل بين الجمع وأقترب منهما .. صوته الذي طالما هتف باسمي يدغدغ أذنيها .. تراه يخبرها بأن صاحبة هذا التمثال قد ماتت ؟ لا .. لا ريب انه يطلب منها أن تجيء كي يخلدها في الصخر كما خلدني .. ويوم تجيء .. ستقف أمامه في هذه الغرفة كما وقفت .. نظراته الخبيرة تتحسس وجهها الجذاب وتلثمه بينما أنامله الدقيقة تغيب في الطين وتخرج يداه برأس صغير جميل.. يتوسط الركن المقابل لتمثالي .. ثم تمد يدها لتودعه فيضمها ويقبلها أمام تمثالي الجامد ..

ازداد اقترابه من شقرائه وأضحى حديثها همساً . يخيل إليّ ان عيني تمثالي قد اغرورقتا بالدموع .. وان اعماقه المتحجرة تتفتت وتدمى ..
لا .. لن أتركه هنا .. انه كل ما بقي مني ، يجب أن أهرب به من هذا الجحيم ..

تقع نظراته عليّ فجأة . ينتفض : ترتجف شقراوه . تمسك بيده ..
ليتني أحطم المرآة التي تتصدر الحائط ساخرة من قبحي وأقطع أنامله الدقيقة بحدها المرهف حتى يسيل دمه .. يغسل وجهي ويغرق في شقوقه واخاديده المرعبة .. إنه يسأل : ماذا تريدين ..

أجيب بصعوبة : أريد تمثالي .

– تمثالكِ ! تهتف الشقراء وهي تنقل نظراتها بين وجهي والتمثال .

يسألني : « وماذا بعد أن تحصلي عليه ؟؟ »

– لن ترى وجهي أبداً ..

يرفع الرأس البديع شامخ الأنف عن قاعدته .. يحمله بين يديه ويقدمه لي .. تلتقي نظراتنا ..

في عينيه ألم مستسلم وعجز بائس . ذاب حقدي في ثانية ... ما ذنبه ؟. ما ذنبه إذا كنت في سيارة اصطدمت بأخرى ؟ ما ذنبه إذا انتشلت من بين الأنقاض جثة معجونة بالمسامير والزجاج ؟ انه لا يستطيع أن يفعل شيئاً . لا يمكن لكلماته أن تردم الاخدود الرهيب وتعيد الشفة المغناج .. لو منحني شفقته لزاد في عذابي .. إنه فنان يحب الجمال .. وأنا .. دمامة العالم ووحشة القبور وبرد الجليد الوخاز . أتناول التمثال ويخيل إلي لبرهة انني أبتسم لنبيل .. ولكنني سرعان ما أدرك ان ما يرتسم على وجهي لا يمكن أن يكون ابتسامة . مجرد كشف عن أسناني المحطمة وتوسيع للتشويه في شفتيّ العليا .. أحتى بابتسامة يضن القدر علي ؟

أحمل تمثالي جثة الماضي .. نعشي المضغوط .. أنفه الاشم يتحدى

قبحي .. خده الناعم يسخر من عمق جرحي . أخرج من المعرض بين ذهول الزوار واشمئزازهم .. لم تعد نظرات القرف تجرحني . لقد اعتدتها كما تعتاد الكلاب الضالة ركلات أقدام السكارى ..

وصلت إلى غرفتي .. أضع التمثال على منضدة متشققة وأتأمله .. وخازة هي ظلمة الغرفة .. رائحة البرد تختلط بدمي .. حرقة دامية تمضغ ليلي الرهيب . أقف عارية في العتمة المتشنجة .. أشعر ان وحدتي منشار وحشي القسوة ينغرس في أعصابي المتوترة .. أنا وحيدة .. وحيدة كالموت .. متعبة كالانين ... مخيفة ، أثير الاشمئزاز كعناكب لزجة الليونة .. أنـــا كالهوام .. يجب أن أدب في شقوق الجدران .. ان أخفي وجهي المشوه كلما مزق الظلام ضوء سيارة عابرة . أنا ضعيفة . ما زال بي حنين إلى إنسان لا يخاف قبحي . يشعر بأنني لا زلت إنسانة أتألم وأحلم .. أكاد أتمزق وأنفجر.. ديدان الاسى تلعق جراحي الدامية بنهم مروع .

أسرع إلى النافذة وأفتحها . أرى شبح رجل يتحرك في الزقاق الضيق برشاقة .. النور المتعب ينسكب على كتفيه ويفيض عند خصره .. انه رائع التكوين شهي المنظر .. انه يفجر ذعري وخوفي ويأسي . أركض بجنونة نحو درج مقفل .. أخرج مرآة وأنظر في وجهي .. آه ما أقبحه .. ما ألذ قبحه .. الاخدود المشوه جزء مني .. الشفة المرعبة هي أنا .. دميمة .. لا أحد يعترف بانسانيتي ، فلأعترف أنا بحيوانيتي ووحشيتي .. أنظر في وجهي بقسوة عجيبة وألم مدمر لذيذ .. أشعر انني أتحدى العالم ببشاعتي . أتحدى التمثال شامخ الأنف .. موجة حنق مسعور تفجرني .. أرمي بالمرآة وأحمل إحدى قطعها المدببة . أقترب من الرأس الانيق وأضواء حمر تتراقص عليه وجو الغرفة يعبق برائحة الدم . انني اشوهه بحطام المرآة مدببة الاطراف.. اشوهه بحرقة .. أدمر الانسانة التي يعترف بها الناس . أما أنا فهامة تدب ... أطعن التمثال في خده الأيمن . ها هو ذا الاخدود المرعب .. اشوه الشفة أسحق

الذقن .. أضرب العين التي تبلل دموعها يدي .. لا يمكن أن تكون هذه دموعي، فأنا لا أبكي .. الدم يسيل من التمثال ويغسل يدي كأنما جرحتها حطام المرآة .. الدم والدمع يختلطان .. أضرب التمثال برأسي الدامي فيرتطم تحت أقدامي . أهوي على الارض متعبة .. نور سيارة عابرة يتسلل إلى الغرفة فأزحف على الارض مذعورة .. كم أكره الاضواء ! اشعر انني في مصعد .. التابوت الخشبي المحبوب .. انني أهوي .. أهوي باستسلام ممتع .. ضجيج المدينة يغيب .. سكينة اليأس تغمرني .. أهوي .. أهوي في أعماق سحيقة بلا نهاية .. صخب العيون المتقززة يموت .. ما ألذ أن أضيع في عالم ضبابي حيث لا ضجيج ولا نظرات ..

مات التمثال .. مات الماضي .. لم يبق سواي أحمل عذابي وأدور به في ليل مدينتي المريع ، أنحدر أبداً في مصعد كهربائي يسقط بي إلى هاوية تمثالي المحطم .

لو

الليل في دروب السماء غامض جبار . البرق يلتمع وحشياً في شبكات عنكبوتية تنسجها العاصفة ، في وجه طائرتنا .. المطر ينبت من الزجاج الأمامي لغرفة القيادة ويغسله .. العرق البارد يتصبب من جبين القائد . عامل اللاسلكي يقذف بالجهاز جانباً بعد ساعات من المحاولة اليائسة . نحن جرذان في علبة يتلهى الاعصار بها . علومنا وكتبنا وتقاليدنا تتمزق أمام العاصفة لنبدو على حقيقتنا . الركاب جميعاً يعيشون في لحظات الخطر هذه بدائيتهم الشرسة .. حتى أنت يا زياد .. من كان يصدق ذلك يا إله التمر ؟ أفضل البقاء هنا مع القائد .. انه وحده يبدو لي انساناً متحضراً يكافح من أجل الآخرين . يخاطبني دون أن يلتفت : لقد تعطل جهاز قياس الارتفاع .. سيكون هبوطنا عسيراً إذا نجونا ، أخرجي إلى الركاب وحاولي تهدئتهم ...

صوته محموم . كلماته لا تخيفني . تبعث في نفسي احساساً دافئاً بنشوة همجية حاقدة .. سيموتون .. سيموتون جميعاً .. وعيناك يا زياد ، لهبتا معبدي المقدستان لن تضيئا إلا لي .. لن تكونا لها .. .

أفتح الباب وأخرج إلى الركاب .. ما زالوا كما خلفتهم منذ دقائق . طفلة تنوح . عجوز تعول مصلية . الطائرة تميل فجأة . جبيني يصطدم بشيء ما وسيخ من اللهب يتوهج في عيني ثم ينطفىء . الوجوه والاشياء أبخرة زائغة تتطاير في فضاء الطائرة ثم تتوضح شيئاً فشيئاً .. وانت في مقعدك ، وعيناك لا ترحمان . وعروسك إلى جانبك شقراء شفافة دقيقة ملونة لم تعهد غضبات العاصفة في أزقة السماء .

لا تنظر إلى وجودي مستجدياً دمعة . علمتني أمي كيف لا أبكي ..
يوم مات أبي أطلقت نساء الحي ألسنتهم في الحديث عنها لأنها لم تبك ..
ورغم أنفهن لم تبك .. لكنني لم أرها تبسم قط بعده .. لم أرها تبسم إلا يوم
أنهيت دراستي الثانوية ووجدت عملاً هادئاً نعتاش منه في مكتبة المدينة الكبرى ،
ولم أسمعها تجامل رجلاً إلا صاحب المكتبة الشيخ الذي ملأ وجودي بحنانه
وكتبه وهدوئه . وكنت سعيدة في عملي .. انعم بسكينة الصمت وفضيلة
الرتابة .. حتى أطلت عيناك شريرتين رائعتين وثنيتين .. فتمزق الصمت
ونفقت السكينة .. هل تذكر ؟ لا .. لا تنظر إلى جمودي مستجدياً دمعة ..
أنا المضيفة وعلي ألا أبكي .. يخيفك المطر الوحشي الذي تسكبه العاصفة على
الزجاج إلى جانبك ؟ كم أحب وجهك في المطر .. كيوم رأيته للمرة الأولى ..
لو ان المطر لم يهطل تلك الليلة منذ عامين .. لو ان رائحة الحياة لم تفح من
ضبات المطر للارض .. من لثمات قطراته لجوع الشوارع الجافة .. مـــن
تغلغلها الثائر المثير فيها . لو ان المدينة لم تستسلم لزحف المطر في أزقتها .. لو
ان وجهك لم يطل خلف الواجهة الزجاجية للمكتبة ندياً جذاباً كأسطورة ..
لو لم تدفع الباب بعد لحظات وتطلب مني كتاباً .. لو لم تلتق نظراتنا في لحظة
انجذاب خفية .. لو لم تكن عيناك لمبتي معبد تعبقان بالبخور والحكايا الغامضة .
لو لم أحبك .. ربما كنت أظل هناك في المكتبة أبداً ، أقضي حياتي دون أن
أمتطي الطائرة مرة واحدة ..

هل تذكر ؟

كان شتاء مدهشاً .. وكان ربيع عهود .. وكان صيف استعداد لشراكة
لا يفصمها إلا الموت .. وتمت سعادتي يوم علمت بفوزك النهائي بشهادة
الطب .. وفي الخريف فاجأتني بأنك سترحل إلى باريس للتخصص .
ومضيت وبقيت وحدي في المكتبة .. أعود كل أمسية إلى أمي بومة مبللة ..
وانت بعيد .. بعيد ...

وليلة رأيت فاتنة تتألق في ثوبها الكحلي والناس من حولها يتهامسون بأنها مضيفة ، لم أنم .. كنت أفكر : لماذا لا أكون مضيفة ، فيدفعون لي نقوداً ثمن رحلاتي ؟ وأراك في غربتك ؟

كان الجحيم عندي أن أبيع كتاباً لانسان أجهله ، أو ان اضطر لمحادثته .. وان أسير في الشارع وحدي دون أمي أو ان أفارقها ليلة واحدة .. ولم أتردد . لم تترك لي عيناك الوثنيتان أي خيار .. وانتقيت جحيمي .. وأصبحت مضيفة .

عامان ولا صديق لي سوى الليل في دروب السماء .. عامان وعيناك تحملانني من تيه إلى صحو إلى تيه .. عامان والصقيع ينبت مع أهدابي في ليالي الشتاء .. وقوس قزح يولد شلالات ضياء ملونـــة ثم ينطفىء .. والخطر الغامض يتهددنا في مكان ما .. نزحف في فضاء لا نراه .. عامان وأنا أحسد الحشرات التي تتحسس دربها بأناملها وقرونها .. فالاجهزة المعقدة أضحت أعيننا وحواسنا ونحن قد استحلنا إلى استطالات لحمية لابرها ومؤشراتها الحديدية .. عامان وأنا قانعة بالجحيم ما دام الجحيم وسيلتي لاراك .. لماذا لم تقل لي يومئذ انك لم تعد تحبني ؟ لماذا ، بعد عامين من التسكع في ازقة باريس ، فاجأتني بزواجك بزميلتك الشقراء ، وخنقت نشوتي الطفلة بنجاحك النهائي ؟

إنها ترتعد الآن إلى جانبك .. لم لا تحنو عليها ؟ هل سلختك العاصفة عنها ؟ ألم أقل لك منذ أسابيع ، وكنت قد لاحظت فتورك ومللك ان لا صديق لي بعدك سوى الليل في دروب السماء .. لماذا تدهشك غضبة الليل من أجلي ؟ هنا كانت مملكة بؤسي ووحدتي وأنت يا إله التمر لم تعد تجذبني إلى غموض كهوفك ، لم تعد تثير في نفسي حنيناً إلى سجود بدائي خاشع لا لأنك تركتني ، ولكن لأنك خدعتني .. لو قلت لي انك لم تعد تحبني ، لو لم تفاجئني بزواجكما لفقدتني كحبيبة انثى ، ولكسبتني كصديقة انسانة .. لماذا تدهشك غضبة الليل من أجلي .. ستموت ! كما ماتت أمي ذات ليلة ، بائسة تبكي وحيدتها

الضالة في سماء مدينة ما .. الباحثة عن ملاح كان نجم صبحه زيفاً وخداعاً ..
أمي ماتت بعد أسابيع من عملي كمضيفة : قتلها القلق والخوف ..

هل تسمع ؟ في الخواء .. في غيمة كفنية البياض تتمدد امرأة عجوز كسنديانة مقدسة ، تنوح في صوت جبار مصبري .. تبكي من أجل طفلتها الضالة في سماء ما ... تبكي منذ الأزل كنواح الهنديات في وديان غامضة الاصداء . هل تسمع صوتها الحاد صافياً يهيج لوعة الغيوم وشهوة الصواعق إلى الدم ؟ لماذا يخيفك ان تنتفض الطائرة كنعجة صرعها الجزار ؟ لا .. لا تشح بوجهك عن عروسك .. الآن افهم انك ما أحببتني قط وما أحببتها .. ما أحببت إلا نفسك .. بعد قليل يتمزق زجاج النوافذ .. وتتسلل ريح دامعة جنائزية العويل .. بعد قليل .. تحمل العاصفة كلاً منا وحيداً .. وتغنمك سحابة كثيفة كجبل جليد .. تدفنك في أحشائها لتبقى أبداً ضالاً في السماء .. وحيداً لا تعرف نشوة العطاء .. انه ليس عقاباً .. انها تعرية لوجودك ، ليس في السماء عقاب لك أكبر من ان تواجه نفسك وتراها على حقيقتها ..

الطائرة في فم وحش خرافي يلوكها .. طفل في الركن تتمزق أربطته ويهوي . أمسك به ، أمه مغمى عليها .. رجل بدين يدفن وجهه بين يديه . كاهن يبكي . ما زال رأسي يؤلمني . الليل والمطر يلعقان النافذة إلى جانبك .. وجهك ينوس أمامها . لا تنظر إليّ بعينيك الشريرتين المحببتين .. انهما تستثيران حقدي ، ألا تسمع ؟ في الخواء .. في غيمة كفنية البياض تنوح عجوز الأزل من أجل طفلتها الضالة في سماء ما .. دميتك الباريسية تبكي كأنما تسمعها .. لماذا تهملها الآن ؟ أما أحببتها على حد زعمك ؟ أما تركتني ضالة في السماء ربيبة الغيوم لأجلها ؟ تزود منها بنظرات الوداع .. امرأة تعول في مؤخرة الطائرة .. يجب أن أذهب اليها .. لا أستطيع أن أتقدم .. الوحش ما زال يلوك الطائرة .. لن نهبط في المدينة .. لن يكون لكما موقد وطفل . العاصفة تقرع النوافذ وأنا أتقدم نحو المرأة المعزولة ببطء .. ستحطم النوافذ

لتتدفق ندية سخية عادلة .. عويل ، وأمتعة تهوي . اسقط في حضن امرأة كانت تصلي . وجهها يشبه وجه أمي . لا تريد أن تموت . انهض . احس ان مقدمة الطائرة تتجه نحو الاسفل . التقدم نحو مؤخرتها شاق وشبه مستحيل . المرأة هناك ما زالت تصرخ . عيناك قريبتان وأنفاس عروسك إلى جانبي تحرقني . عيناك فارغتان مشققتان كبيدر لم يشهد موكب الندى . وجهها طفولي متعب كوجه قطتي التي ضلت بعد رحيلي .. أمسحه بحنو .. لا اكرهها . انها واهمة كما كنت واهمة .. لا تدري ان آلهة التمر لم تعشق قط إلا نفسها .. هزة عنيفة تقذفني عنها . أتماسك . ضجيج وفوضى . هزة عنيفة تصلبني أرضاً . ألم حاد . أستسلم . أستسلم لزحف النمل في جسدي . الاشياء تهدأ في أمكنتها فجأة ، كأنما بصق الوحش طائرتنا بعدما سئم من مضغها .. هل أنا واهمة ؟ ضحكات وهتاف .. يقولون انا نجونا .. يد القائد دافئة على جبيني . يساعدني على الهبوط . كانت الضربة خفيفة ساعة هبوطنا العجيب . لم يحدث شيء .. أنهض . يسندني إلى صدره . الركاب يتزاحمون حول الباب وضحكاتهم الهستيرية تعلو . عمال المطار متجمعون حول الطائرة وأضواء المصابيح الكشافة تسيح على الاسفلت مع مياه المطر .. وانت يا زياد تضمها اليك لتهبطا .. بعد ان كنتما غريبين طيلة ساعات الخطر .. لم أعد أحسدها .. لا ، ولا أرغب في موتك .. حسبكما بؤساً ان تعيشا معاً .. أنانيتك وضعفها .. سئمت كل شيء ... أريد أن أعود إلى المكتبة .. الآن .. الليلة .. الجميع يجلسون في مطعم المطار . يقول القائد انه سيذهب إلى المدينة فوراً . سأرافقه . يساعدني بينما أحمل جسدي المنهك كالخطيئة وأرمي به على مقعد السيارة . أغمض عيني واستسلم للظلمة ، لصوت المطر على الزجاج ، لصوت الدواليب تمزق برك الماء .. إلى المكتبة أذهب .. إنني جائعة إلى السلام ، إلى لحظة سكينة وصدق وطمأنينة .. في مثل هذه الساعة من الليل ، لا أتوقع ان أجد أحداً .. ستكون المكتبة مظلمة إلا من الضوء الاخضر الباهت الذي اعتدنا ان نتركه في الزوايا ... وسيكون

الباب الحديدي ذو القضبان المربعة مسدلاً .. حسبي أن أقف على الرصيف لامبالية بالمطر ، أدس بوجهي بين القضبان لأرى مقعدي القديم الذي كانت تجلس عليه أمي حينما تزورني .. حسبي أن تزحف نظراتي لتتحسس رفوف الكتب وتنبش من بينها أهدأ ساعاتي المدفونة هناك .. حسبي احساس عميق بأنه ما زال في العالم ذرى خلاص ..

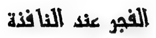
سأعود إلى فردوسي المفقود وأنسى كل شيء عنك وعن عينيك الوثنيتين وعن الرحيل في عتمة الشتاء بين الغيوم . غداً أهجر الطائرات وأعود إلى المكتبة .. السيارة تقف .. القائد يقول إنا وصلنا إلى الشارع الذي حددت اسمه . أفتح عيني . أهبط .. انني بخير .. أجل أستطيع السير والضحك أيضاً ... شكراً لك .

تختفي السيارة . أنا وحيدة في الشارع القديم المحبب وأضواؤه الملونة يغسلها المطر . نحو المنعطف الذي تقع المكتبة في أوله أتجه .. لو لم تكن عيناك لهبتي معبد تعبقان بالبخور والاسرار .. لو ان المطر لم يهطل تلك الليلة ... ربما كنت الآن أتمرغ في ترف النوم والدفء إلى جانب أمي وأحلام الأطفال تداعبني .

أصل إلى المنعطف حيث المكتبة . ما هذا ؟ هنا كانت المكتبة .. ماذا حدث ؟ ألحان فاجرة تنسكب مع أوحال الشارع . مجموعة من الناس تفور أمام باب لم أره من قبل . أركض نحو الباب خوفاً وحسرة .. يا لله .. أين المكتبة ؟.لقد اختفت كأنها لم تكن .. تبخر حلم الفردوس المفقود .. لا كتب ولا صوفية الضوء الأخضر .. لا شيء سوى ملهى ليلي مخمور .. أزحف نحو الباب أتحسسه بيدي .. مجموعة من الشبان تدخل متدافعة عربيدة . لا أدري كيف وجدت نفسي بينهم وراء الباب ... دخان وروائح ملونة عتيقة .. راقصة ملونة فاجرة الحركات تتلوى قبيحة مغناجا مزيفة الاصباغ كالحياة ... ضحكات ذئبية تزحف بين فجوات الجدران المزيفة .. أحدهم

يحدق إلى وجهي بفضول ضبع جائع .. أنطلق هاربة .. أركض في المطر .. يغسلني .. ألتفت للمرة الأخيرة أتحقق من أن ما شاهدته لم يكن حلماً . على سطح الملهى تئن بومة مبتلة .. الكتب الحبيبة ومقعد أمي ، وأشيائي المحببة تتمزق تحت حذاء راقصة عنيف الضربات .. حزن مفجع حقيقي ينبت في أعماقي بوحشية زهور برية .. لا مفر من لعنة عينيك الوثنيتين ..

لا مفر من أن أظل المضيفة الغامضة ربيبة الغيوم ... لا مفر يا مدينة الظلال .


الفجر عند النافذة

وضعت على المنضدة الصغيرة إلى جانب زوجها ابريق (العرقسوس) والصقت بخده كأساً واحدة ، ثم تأهبت للانسلال من الغرفة .. كأس واحدة فقط لن تضع سواها ... الضيفة المتطفلة التي تحضر كل ليلة لن تجلب لها كأساً بيديها .

صوت بكاء طفلها غسان يتعالى ويتداخل مع همسات مذيعة التلفزيون الحسناء ، التي يخيل اليها انها تبسم ساخرة منها كلما دخلت إلى الغرفة متعمدة .. غسان يبكي ، انه مريض ، كيف ابتعدت عن سريره ؟ ... ما تكاد تستدير لتخرج من الغرفة قبل أن يلحظها زوجها ويناديها ، حتى تسمع صوته يهتف :

— قفي ...

تجمد في مكانها ثم تستدير ببطء ، وتقع نظراتها عليه بينما أضواء التلفزيون الشاحبة تداعب خديه وعنقه برقة نسمة . كم تحب هذا الوجه الاخرس الجامد الذي لا يعبر عما يطوي من عذابات وأمان .. وعيناه الخضراوان بجوع ربيعها إلى شيء مجهول .. إلى حصاد صيف اسمر . تظل تتأمله كأنها تراه للمرة الأولى بينما يتابع هو حديثه :

— لماذا لا تجلسين معنا وتراقبين التلفزيون ؟

تجيب وحبيبات لزجة بدأت تنعقد فوق جبينها : غسان مريض ..

يقاطعها بحنق كثيب : وقبل غسان كان فوزي قد أحرق يديه .. وقبل

فوزي كان عدنان مصاباً بالتيفوئيد .. وسلوى لا تنام قبل الواحدة بعد منتصف الليل .. ألم تلحظي انني أعيش وحيداً منذ رزقنا أولادنا ؟

وتهذي معولة : وهل تريد مني أن أتركهم يموتون كما مات مازن ؟ طفلنا الكبير مازن .. هل تريد أن نجلس ونتسامر ثم ندخل إلى غرفته فنجده ميتاً والخادمة تحلم بجانب سريره ؟

يهدئها ملاطفاً : ولكن جارتنا ضيفتك .. انك لم تجلسي معها ليلة واحدة منذ جاء التلفزيون ..

بغيرة وسخرية ترد عليه : ولكنها ضيفتكَ الآن ... ضيفتك منذ أسابيع ...

يصمت ... لا فائدة من الجدل .. تنسلّ وتحث خطاها نحو غرفة أطفالها ، وعبارة زوجها الأخيرة ما زالت تروح وتجيء في خاطرها كموجة عنيدة .. « جارتنا ضيفتك » .

ضيفتها ! كم تحقد على شعرها الاسود والشباب المتدفق من ثنايا جسدها ..

ضيفتها ! لقد دعتها لمشاهدة التلفزيون ذات يوم بعد أن شكت اليها غياب زوجها السائق عن داره كل ليلة حتى انتصاف الليل بحكم عمله .. وشكت اليها فشله في الحصول على جهاز تلفزيون يؤنس وحدتها ووحشتها .. لم تكن تتصور انها ستستغل دعوتها وتأتي كل ليلة منذ أسابيع لتجلس في المقعد القريب من مقعد زوجها ، ولتلازمه حتى قرب انتصاف الليل .. لم تكن تدري انها ستدفع غالياً ثمن طيبتها ، نزوة غرورها واحساسها بالتفوق ..

تصل إلى غرفة الأطفال ... تدخل بهدوء وقد لانت ملامحها كما تسترخي أغصان (المستحي) حينما تصافح أشعة الشمس .. طفلها ما زال يئن معولا ... يدهشها ان اخوته لم يستيقظوا .. هل يمكن أن يكونوا قد ماتوا جميعاً كما مات مازن ذات مرة بصمت ؟ تقترب منهم برعب هستيري محموم وتنحني عليهم واحداً واحداً لتنتشي بعبير أنفاسهم..الحمد لله.. ما زالوا بخير.. كل

شيء كما تركته منذ لحظات ... مقعدها الجلدي بجانب سرير غسان وقد غاص موضع جلوسها فيه كأن المقعد ما زال يحلم بجلساتها الطويلة في أحضانه .. الضوء الخافت يتسلل إلى خزانة الالعاب القريبة فيحتويها جميعاً بنهم طفل .. فوزي ويداه الملفوفتان بالأضمدة البيض مرمتيان فوق صدره .. سلوى مفتوحة العينين لأن الساعة لم تدق الواحدة بعد منتصف الليل .. وعدنان بفمه الممتلىء المستدير كرسوم الاطفال في المجلات التي تبتاعها له .. كم تحبهم ! تنحني على سرير غسان وتقبله .. يكف عن أنينه الباكي ويفتح عينيه ، فتراهما في النور الشاحب كعيني أبيه ، خضراوين جائعتين كربيع يترقب خصب حصاد اسمر ، وكعيني أخيه مازن الذي مات بينما كانت تسامر أباه منذ أعوام .. لكن طفلها لن يموت بعد اليوم .. ستتحمل ثورات أبيه وسأمه حتى يكبر ويصبح شاباً ثم ترتدي لزوجها من جديد ثوبها السماوي الشفاف .. لكن ثوبي السماوي الشفاف لم يعد يناسبني .. انه يليق بفتاة نحيلة جميلة الجسم .. جارتي مثلاً ..

ها قد عادت تفكر في الجارة .. صورتها الجميلة تعذبها .. ومضات النصر في عينيها الزنجيتين تعذبها ..

قالت لزوجها ذات مرة تنقدها : « ألا ترى الخطوط الحمر في عينيها ؟ انها تشوهها .. »

وبلا مبالاة ممزقة أجاب : عيناها ساحرتان والخطوط الحمر فيها تذكر بليال من نشوة وسهر .

هذه المرأة التي تذكر زوجها بليال من نشوة وسهر تعذبها .. ماذا يفعلان في الظلمة ؟ أحقاً انهما يحيان التلفزيون إلى هذا الحد ؟ ألا يشم دفء انوثتها مع مويجات الظلمة الفضية التي يصوغها التلفزيون بأنواره ؟ هل يسقيها (العرقسوس) الذي تحبه بكأسه لأن زوجته لن تحضر لها كأساً ؟

كم من المرات فاجأتها وبنفسها رغبة شريرة في أن ترى شيئاً ما .. أي

شيء يؤكد مخاوفها ويخلصها من عذاب الشك .. لكنها كانت تجد كل شيء في مكانه .. زوجها في مجلسه المعتاد بوجهه الجامد الذي كان يذوب وجداً للمسات أناملها منذ أعوام .. والجارة في مقعدها وقد ازداد جمالها غموضاً في النور الخافت فبدت كنرجسة تحوم حولها أسراب فراش فضولية ..

لو تكتشف مرة أنهما يخدعانها ولا ينصتان إلى التلفزيون ويرقبانه .. لو تكتشف شيئاً ..

الباب يقرع ... انه اسلوبها ، ثلاث ضربات خفيفة .. لقد جاءت ! تسمع طيور غابات عذراء تزعق مذعورة وتتراكض أسراباً خائفة ... جاءت تفترس الطيور .. تسير بتثاقل لتفتح الباب وتكتشف ان زوجها قد سبقها اليه ... ما معنى لهفته وهو الذي قال ان الجارة ضيفتي أنا ؟ ...

تبدو الجارة على عتبة سمراء دافئة كأمسية صيف شرقية ، تفيض ظلالاً ونداءات ناعمة خفيفة كأسطورة ,.

لقد جاءت بشعرها الاسود القصير ، المشعث فوق جبينها بحيوية طفلة واغراء امرأة ! لماذا ترتدي هذا الثوب السماوي الشفاف ؟ .

بلا وعي منها تمتد يدها لتتحسس شعرها الطويل الذي كان أشقر فأضحى مهملاً متعباً كأهداب حزينة لعين فقدت بريقها .. تتماسك .. تقترب منها .. تصافحها ببرود . الجارة لا تعبأ بها وانما تقول ضاحكة وهي تتجه نحو غرفة الجلوس مع زوجها : هل فاتني الكثير ؟

يجيبها بحيوية ما قبل تسعة أعوام : سأحدثك بكل شيء ..

همساتها تضيع عندما يغيبان عن عينيها . ضحكاتها الحارة المرتفعة لطمات حارة على خدها .. ستتبعها لتجلس معها ..

وتعلو صرخات غسان فجأة .. مسكين غسان ، إنه مريض كأخيه مازن .. تسرع اليه كأنما نسيت العالم كله .. تهدهده بينما تفور في حلقها أصوات مرعبة وتهدر ، دون أن تقوى على طردها إلى عالم الصمت الذي

سيطر فجأة بعد سكوت غسان : انه زوجي .. لم يعد يستطيع الاستغناء عني ... ترهلي وشعري المشعث ووجهي الذابل جزء منه .. أنا من بعض قميصه الصوفي في الشتاء وأمراضه وفرحته .. ضعت في أغواره وانسكبت فيه وامتزجت به كاختلاط مياه نهر مع أمواج البحر عند المصب ..

لا تدري كم من الوقت مر عليها بعد أن أغمض غسان عينيه الخضراوين العجيبتين اللتين تذكرانها بعيني مازن .. كأنهما عينا مازن نفسهما وقد استجاب الله لدعائها وبعثها من جديد في جسد غسان ... وهي لن تترك ابنها يموت مرة ثانية .. انها فرصتها الاخيرة .

أمواج الصمت تنسكب من أهداب سلوى التي لا تنام ، ومن السقف الابيض حيث تحدق .. حتى النور الاصفر يبدو متعباً مهترىء الظلال كأنه مريض منذ عصور .. سلوى تغمض عينيها .. كيف ؟ لما تدق الساعة دقتها الواحدة . الحمد لله .. جميعهم قد ناموا بسلام ..

تنتفض . تحس فجأة انها امرأة غيرى .. ان أظافرها المتقصفة جائعة متوحشة ، وان أناملها بدأت تتمرد وترتجف بعصبية مشبوبة .. زوجها في الغرفة المجاورة وحيد مع الفتنة السمراء ..

تتشنج عيناها فجأة وتومضان ظلالاً حمراً نارية ، يتقلص خداها كأنما ارتاعا لهذه الظلال .. ستفاجئهما ..

تخرج من الغرفة بهدوء ... تنسل في البهو متجهة نحوهما .. تصل إلى غرفة الرعب وتدخل فجأة وهي تحدّق اليها .. لا جديد ! هو في مجلسه المعتاد .. الجارة بشعرها القصير المشعث بعبث طفلة واثارة امرأة ..

زوجها يطلق إحدى عبارات الاستحسان تماماً كما يفعل كلما فاجأتهما ... لو كان يعرف ان هذه العبارات بالذات تثير شكوكها بدلاً من أن تطمئنها .. تكاد تعود خائبة فرحة بخيبتها لو لم تحن منها التفاتة نحو جهاز التلفزيون ، لترى موضع استحسانه هذه المرة ، فتجد شاشته فارغة إلا من خطوط

عرضانية تهرول وتلف مذعورة ، ونقاط مضيئة مبعثرة بينها ترقص بهوس هستيري !

تظل نظراتها تقفز من الشاشة إلى وجهيها بالتتابع وقد ذاب فيها عذاب الشك وحل محله عذاب اليقين !

أهذا موضع استحسان ؟ أم انه أطلق صيحته ، بحكم العادة ، دون أن يرى ان الشاشة فارغة .. لأنه لم يكن مشغولاً بالشاشة وانما بـ ... .. لا تريد أن تصدق ... ليته يقول شيئاً .. يفتح فمه ويهتف ضاحكاً : « يبدو ان حظك سيء ... لقد تعطل التلفزيون فور انضمامك الينا » .

تعرف أنه يكذب ! تسع سنوات من الحياة المشتركة كانت كافية لتفهم معنى الرعشة الخفيفة في صوته وهو يحاول ان يزيف الاشياء ويبدو طبيعياً مازحاً .. ولكن .. لعله لا يكذب .. ليته لا يكذب .. تقترب من الجهاز ، وقبل أن تمس أناملها المرتجفة أحد مفاتيحه ، تتوضح صورة المذيعة الحسناء وهي تبسم في وجهها بسخرية ممزقة وتقول بعذوبة وخازة : نعتذر لكم لتوقفنا عن البث في نصف الساعة الماضية بسبب عطل طارىء .. والآن ، نقدم لكم ....

لم تعد تسمع شيئاً . نصف ساعة لم تحن من أحدهما التفاتة نحو التلفزيون ليدرك انه قد أغلق سوره الفضي دون مدينته العجيبة المثيرة ! لعله كان مشغولاً بعينيها .. تلتمعان في الظلام وتذكران بليال من نشوة وسهر .. آلاف الكلمات التي كانت قد أعدتها لمثل هذا الموقف تستحيل في حنجرتها إلى أنات حيوان ذبيح ..

آلاف الدموع التي كانت تسكبها بمناسبة وبلا مناسبة غاصت وترسب برودها في أغوارها .. أي شيء تقوله سيبدو سخيفاً أمام نول العذاب الذي يتحرك بقسوة بين ضلوعها ناسجاً فيها غلالة بؤس حقيقي .. هذه اللصة ! ستصفعها . ترى في عيني زوجها تلهناً خائفاً متوسلاً .. لن تأبه ! ..

سنصفعها .. ماذا ؟ من يصرخ ؟ إنه غسان ... طفلها الحبيب يبكي .. مازن مات دون أن تسمع صراخه .. أي عالم أحلى من عالم ابتسامته ... ستتركها .

تخرج بصمت قمة وكبرياء سحابة ممطرة وتغلق الباب وراءها .. تسرع إلى غسان .. ما زال يبكي ... تهدهده .. تحس انها تستطيع أن تحارب جيوش العالم كلها من أجل ابتسامة في عينيه .. وتراه يصمت وينظر اليها فيطل منها ربيع يواسي بؤسها ويملأها بنشوة البذل المطهرة .. وتبكي فجأة .. تبكي بصمت كما لم تبك في حياتها .. للمرة الأولى لا تريد أن يلمح زوجها دموعها أو يحاول ارضاءها .. للمرة الأولى تحس بنقاء الدمع وصفائه .. تتهالك في مقعدها وتنظر إلى أولادها بلذة كأنها تشارك رؤوسهم الصغيرة أحلامها الصبيانية العذبة ..

تسمع صوت اصطفاق الباب .. ماذا ؟ هل ذهبت ؟ للمرة الأولى تمضي قبل انتصاف الليل .

خطوات زوجها تتجه نحو غرفة أطفالها متعبة هرمة متثاقلة .. كأنها خطوات نسر جريح عبثاً يزحف نحو قمته التي أضحت بعيدة يغمرها الضباب ...

وتغوص في مقعدها ، تحدق إلى الضوء الاصفر المريض وظلاله المهترئة ، ثم تركز نظراتها في النافذة ، حيث يولد الفجر كل صباح .

قتلته لأغني

الحان خافتة مجرحة تتسلل إلى غرفتي من صالة الفندق .. ويخيل إليّ ان الاوتار تنتحب بلوعة مبهمة .. لوعة لا يجاريها غير أنات الامواج التي تتشبث مستميتة بأقدام الصخر أمام الفندق . البحر يعول هذه الليلة وكأنما يحمل صرخات أهل جزيرة استفاقوا فجأة ، ورأوا ان النجوم تهاجر من سمائهم لاهثة وراء موكب تائه للملاّح ما زال يدور ويدور باحثاً عن باندورة.

بودي لو أفتديه .. ولكن الليلة ليلة العمر التي سعيت اليها بمواهبي كلها ..

المسرح الكبير يناديني حيث وقفت للمرة الأولى منذ عام ، فتاة مغمورة لا يحميها إلا دفء ليل زنجي في عيني رجل حبيب ، حبيب إلى نفسها .

ألتفت إلى سريري . تقع عيناي على جريدة مفتوحة تتصدر إحدى صفحاتها صورة كبيرة ضاحكة لحسناء .. وتنتفض نظراتي بعنف وتعود إلى المرآة حيث تقع على الوجه نفسه ، لا تنقصه سوى الضحكة ..

ألا تستطيع الامواج أن تسكت ليلة واحدة فترحم عذابي المبهم بصمتها ؟

أنهض عن مرآتي لاغلق النافذة .. تنزلق نظراتي على الصخور .. ما زال الموج يزحف باحثاً بلهفة عن أقدامنا الهائمة ، حيث جلسنا منذ عـــام نحتفل بنجاحي في اليوم الأول لوقوفي على المسرح .. كنت مذعورة وخائفة تلك الليلة .. لما وقفت أمام الناس ، ورأيت الجدران مطلية بالعيون النقادة ، أحسست برغبة في الهرب .. كدت انفجر باكية .. ولكنه كان يجلس

أمامي في الصف الأول وفي عينيه العميقتين دفء ليل زنجي .. وهربت نظراتي من جوانب القاعة ، وتركزت جميعاً في الملامح السمر الوسيمة . وكان فيها نداء مخدر كأنفاس حسناء في أمسية صيف .. همساته تهدر في كياني .. « صوتك رائع .. ستنجحين .. سيحبك الجميع .. »

وانطلقت أغني له وحده .. أنشد لليل عينيه الزنجي .. وغاض الناس .. ضاعت الجدران والابعاد .. ثمل الصدى .. لم يبق سوانا في فجر وردي الضياء ..

واستيقظت على تصفيق الجمهور وهتافه .. واكتشفت يومئذ ان التصفيق رائع ولذيذ .. وانني عطشى ونهمه .. وانني أريد المزيد ..

وعدنا إلى الفندق والعبارات المتملقة ترضي غروري الذي بدأ يعلن عن نفسه بتمرد وقح .. وقبل أن يأوي كلٌ منا إلى غرفته هبطنا إلى الشاطىء وجلسنا عند هذه الصخرة وما زالت خمرة الإعجاب تملك حواسي ..

تأرجح صوته الحنون في طيات الأمواج قائلاً : هل سمعت آراءهم ؟ .. قالوا إن صوتك مدهش .. لا ينقصك سوى مزيد من الانفعال والرغبة في التعبير عن شيء ما .. ولكن ، دعينا منهم ومن آرائهم .. أريحيني . قولي متى نتزوج ؟ ..

ــ هل يجب أن تفسد علينا سعادتنا كل مرة بمثل هذا الحديث ؟ تعرف انني أحبك ، لكنك لا تجهل رأيي ..

ــ كفى ، لا داعي للبحث في الموضوع ذاته من جديد .. اعتذر اليك عن ضعفي الذي ساقني اليه فرط حبي .. ثقي ان ولعي بك كان يمنعني عن الرحيل ..

ومزقت نجمة متمردة مدارها في ركن عينيه بينما كان يقول بقسوة جريح : لن أعود حتى أكون الرجل الذي تبتغين ..

ولعل ظل أسى تسلل خلال غروري وصبغ وجهي بصفرة شاحبة إذ

انه أضاف ثائراً مهدئاً : غداً نعود إلى دمشق ، وهناك نقرر ما نفعل ..

وغابت يداي في بيادر شعره ، وعربدت النشوة في مسامي بينما كان يسحقني بين ذراعيه وصدره ..

ولما استيقظت في اليوم التالي قالوا انه رحل .. ولما لحقت به إلى دمشق قالوا انه رحل بعيداً .. وحيداً .. ليجلب لجيدي العاري الذي يحب اللؤلؤ عقداً من اللؤلؤ ..

* * *

ألا تستطيع الأمواج أن تسكت ليلة واحدة ؟ .. لماذا تظل تردد وتردد الحكاية نفسها منذ وصلت إلى هذه المدينة وحدي بدونه .. منذ وقفت إلى مرآتي أتزين استعداداً لليلة الفاصلة ؟ ألم تهترىء الحكاية أيتها الامواج المتمردة ؟ ..

المسرح ينتظرني ومئات العيون تتكدس في زواياه .. النقاد تجمعوا ليتحققوا الليلة من صحة الضجة التي ثارت حولي .. وهو لم يعد بعد ليجلس في الصف الأمامي .. لتهرب نظراتي المرتعدة إلى دفء عينيه الزنجي .. لن يعود أيها البحر .. أفلا تهدأ ؟..

الباب يقرع . من يناديني ؟ . أجل .. سأسرع .. وأعود إلى مرآتي . أتمم زينتي بآلية ممزقة . وجهي مطلي باتقان كلوحة مخمل ابيض ، أخطط بالقلم الاسود ما سيدعوه الناس بعيني الساحرتين الصق ما سيسمى بأهدابي الناعمة .. شفتاي .. ارسمهما بمهارة عنكبوت هرم .. خداي لم يكونا بحاجة إلى الالوان في المرة الأولى .. أثبت شعري برذاذ لزج وأحس بأنني احمل فوق رأسي شعر امرأة ميتة ..

أتناول عقداً مدهشاً من اللؤلوء ويخيل إليّ انني سأنوء تحت أثقاله .. أحشر جسدي في ثوبي الذي لا يزيد اتساعه عن اتساع جلدي إلا بقليل ..

تهوي نظراتي على صورة امرأة وقفت أمامي في المرآة سيقول الجميع

انها فاتنة .. لا تنقصها إلا الابتسامة .

أزيح شفتي قليلاً عن اسناني .. يحتضر بينها ظل ابتسامة .. ألا يمكن ان تصمت حكاياتك الازلية ايها البحر هذه الليلة فقط ؟ كفى ايتها الامواج النادبة .. اعرف ان مركبه قد تاه .. وان دماء الشفق صبغت شراعه .. وباندورة. لشد ما تود لو تفديه .. ولكن ..

الباب يقرع . « لحظة واحدة ايها الرفاق .. لقد انتهيت » ..

لماذا ينظرون إليّ بهذا الذهول ؟ ..

أحدهم يقول : « رائعة ، لكن جمالك لن يكفي الليلة ..

قضيت أياماً وأنا ألحن لك « أغنية باندورة » ..

يجب أن تنشدي بانفعال .. كأنها أغنيتك .. دموعي اضاعت طريقها إلى عيني .. أحسها تنهمر إلى الداخل .. إلى حيث تغرق مع اللحن المترسب في ذاتي .. وأهذي وراءه : سأحاول ..

تحملني سيارة اطاراتها عاصفة تملق ورياء في الدرب الذي وطئناه منذ عام .. (وكانت يدي تتمرغ في دفء يده .. وكنت مغمورة وسعيدة) .. يدي الفارغة تحاول التشبث بشيء ما .. لا ظل سوى ظل الصقيع حولي .. لا همسة سوى قرقعة حطام مركب مهترىء .. ونشيج ملاح ممزق.. باندورة لن تجيب هذه المرة..باندورة لن تجيب .

أنوار المسرح تنسكب على وجهي شلالات لهب جهنمية وأنا أصعد الدرجات الرخامية حيث استندت إلى ذراعه ذات مرة وغمرني اطمئنان عجيب .. عشرات الاذرع تمتد الآن لتسندني .. أتناول أقربها لاستعيض بها عن مظلتي ..

دفء القاعة يغمرني مع أكداس من المديح تزهق انفاسي .. رجال كثيرون يلتفون حولي ..

ــ أقدم لك الناقد .. الاستاذ .. أقدم لك ..

يدي تصافح بآلية بلهاء .. وانا غريبة بدونه .. ضائعة بدونه .. الأشياء قد فقدت لونها ونيران المجد تلسعني ببرودة كاوية .. وانا طفلة وحيدة في مدينة انقلب كل من فيها إلى تماثيل اسطورية نحاسية .

ذعر مفاجيء يلهث في قسماتي وانا أصعد المسرح الخشبي .. ماذا أفعل هنا ؟

المساحيق ثقيلة على خدي . الاهداب الاصطناعية تكاد تقفز من مكانها وتنتزع معها عيني . أريد أن أهرب،ان أضيع في سهوب بنفسجية يتوسطها بيت صغير دافيء ومركب لم تذق اخشابه طعم الماء المالح ، وقد استند إلى أحد جدران الدار بينما يلهو طفل وديع بشراعه ..

وأتلفت مستنجدة باحثة عن عينين ليلهما زنجي ، فلا أجد أحداً ..

أصعد أول درجة من درجات المسرح ومنشار أسى وخّاز ينبت في صدري .. أصعد الدرجة الثانية .. الثالثة.. فات الاوان .. أصعدي يا حمقاء .. أهوى الصعود ..

أقف تحت الضوء الملتهب المسلط .. تحيب الامواج يضيع في دوامة التصفيق . عباب ضبابية تبتلع عينين ليلهما زنجي .. ولا يبقى سواي .. فراشة تهوى احراق أجنحتها وتهوى تصفيق الناس لرائحة الحريق ..

شذى محيطات زرق سحيقة يتدفق حولي مع المقدمة الموسيقية التي تعلو... العيون النقادة تطلي جوانب القاعة .. تغمرني ظلال خوف قديم .. انظر إلى حيث كان ذات مرة ولا أجد ليل عينيه الزنجي .. لقد مضى .. مضى ..

اللحن قد هدأ وكلهم في انتظاري .. يجب أن أغني .. لا أستطيع ..

أنا تمثال ملون صامت . عروس من الورق المقوى . صوتي ضائع . لم أعد أستطيع الغناء ! ! .

الموسيقى تعيد اللحن من جديد . غمغمة خافتة بدأت تسري في القاعة . وهو يسيطر فجأة على حواسي كلها .. يجب أن أجده .. يجب أن أفتديه .

سأناديه بأغنيتي الرمادية .. سأبحث عنه ..

أترك لهم ثوبي المحشو بجسدي ، ورأسي المستند اليها على المسرح .. وأنطلق .. أهبط دون أنْ يبدو ان أحداً قد رآني .. أقف بين الجمهور وَأنظر إلى الجسد المنتصب أمامهم وأشعر انه مضحك مضحك .. كيف استطعت ان الونه وأرسمه هكذا ؟ .

أتحسس وجهي العاري الذي غسلته نجوم غابة عذراء ، واحدق في الطين المحشو بين اصابع قدمي العاريتين ، وأشم عبق الاعشاب الندية من صدري . أشعر بارتياح مدهش .. وأشعر بشماتة وحشية مؤملة وانا اراها هناك على المسرح .. دمية من الورق المقوى ، صوتها حبيس في اعماقي ..

أما انا فانني .. أموت إذا لم اغن . أنشد بحرقة واناديه وانا أنسل من القاعة .

وألتفت ورائي قبل أن أمضي ، وأراها هناك على المسرح تفتح فمها وتغلقه ، والحاني الذبيحة تخرج من خلاله بينما الناس يتمايلون ويتأوهون ويطربون ..

أصفق الباب ورائي وانطلق إلى البحر .. إلى حيث الصخرة أمام الفندق وأنا أنشد وأنشد عمري المتعب في الحان داكنة هوجاء وأجده هناك .. اقترب منه .. أضيع في رمال صدره السحرية .. واهوي غجرية تنشج ويضمني إليه وهو يقول : « سأبني لك داراً من الاصداف ، في كل صدفة تضيء لؤلؤة » .

وأجيبه وأنا ادمدم : « أريد عقداً من اللؤلؤ » ..

ويظل يضمني أكثر واكثر .. يغمرني خدر عجيب وسعادة بغيضة كسول .. الاطمئنان يطفيء جوعي إلى المجهول .. السلام يبعثر لهفتي وحنيني إلى قمر لم يولد بعد .. نشيدي يحتضر .. وأثور على سعادتي معه .. يجب أن أظل ممزقة معذبة كي أغني .. وأنا غجرية تموت إذا لم تغن .. .

يقترب منا سرطان تضيء عيناه الحمراوان وقد استرخى بين رأسيه خنجر ذهبي مقبضة ذو درجات تشبه درجات مسرح .. أتناول الخنجر وأغمده في صدر حبيبي ببساطة بريئة.تذوي قسوة ساعديه حولي بينما انا أتمزق بلذة . أنشد بلوعة وحماسة . يكاد صوتي يضيع في تصفيق حاد مبهم المصدر . أبحث عن مركب لأرمي بحبيبي ريثما أفتديه ذات دهر .. ولا أجد البحر ! .. وأبكي فجأة بلوعة أخرس تسحقه صخرة مدببة الحواف .. أحمل حبيبي بين يدي ببساطة وأرفعه عالياً وأهيم .. أضيع به بين الرمال وقدماي المتعبتان ترسمان حفراً تغور فيها ضفادع شامتة تنقنق صائحة : « لقد انتحرت الامواج وجف البحر » ..

ولا أيأس ..

واظل أحمله باكية منشدة وانا أدور بها سواحل وسواحل .. وأنا أصعد جبالاً فولاذية الاشواك .. وأنا اركع في محاريب دامية الغروب .. وأنا اهبط به ودياناً عذراء الخضرة .. وأنا اضيع به في غابات همجية الاغصان .. وأنا«باندورة»التائبة اود لو افتديه .. واجد الرمل والساحل ولا أجد البحر . واسمع نقيق الامواج عاتباً واشم ملوحة الماء ولا أجد البحر .

واطارد الشمس علنيّ أجد البحر حيث تستحم كل ليلة .. ولا أجده ! !

وتنوح الاصداف بين الرمال .. ! تبكي لآلىء ادوسها. ولا أعي .. يرجمني الاطفال بالحصى وهم يبكون لانني قتلت البحر ولم يعد بوسعهم بناء قصورهم الرملية على الساحل ..

وأعدو مذعورة .. أحاول أن أخفي وجهي في صدر حبيبي .. اكتشف انه اختفى .. قطرات الماء تتفجر من السماء .. تصرخ قطراتها : « لقد اضعته .. لقد ذهب » ..

وأدور بين الاعشاب الموحلة ، وأتخبط واهوي وأزحف وأتلوى في

برك الطين .. ولا أجده ! .
ألتقي برجل يسألني : لماذا تغنين ؟
— انا لا أعرف سوى الغناء !
— ومن تنادين ؟
— انادي حبيبي الذي صار زنبقة في غدير أبدي المساء ، أو طيراً شفافاً عجيب الالوان في سماء ما ..
ويسخر مني الرجل ويقول : اذهبي فأهل المدينة الشمعية ينتظرونك ..
وأجد في مدخل المدينة كهفاً أركض إلى إحدى زواياه وأصلب نفسي عروساً من الورق المقوى ..
ويأتي ملك المدينة تحط به نسوة من الجص فأسأله : « هل تعرف أين هرب البحر ؟ » ..
— « لقد رحل مع حبيبك وتركا لك لؤلؤ العالم أجمع .. صوتك جميل أيتها الباكية » ..
يشير بأصبعه فتقترب مني نسوة جميلات لكنهن خرس فيزينني في ركن الكهف حيث صلبت نفسي عروساً من الورق المقوى بينما أهل المدينة الشمعية يصفقون .. يصفقون .. يصفقون .. ونشيدي يهدأ وكلهم يصفق !!.
أستيقظ من غيبوبتي .. أجد انني ما زلت هنا فوق المسرح تحت الاضواء المحرقة والهتاف يدوي من كل جانب .. رائعة .. أغنية « باندورة » تستحق المجد .. تعبر عن اليأس بصورة مدهشة . وأضيع في دوامة التصفيق وأنا أحس ان الايدي تصفعني .. وانني أكاد أهوي إلى الارض .. يد تسندني وأنا أهبط من المسرح .. « ابتسمي » ..
وأبتسم . وأشكر .. وامضي مع الرفاق .. وأخرج والضجيج ينهشني . الشعر الميت الملتصق برأسي يستحيل إلى ثعابين مسمومة تنسل ببطء إلى اعماق دماغي لتختلط بأعصابي في ضفائر من عذاب ..

– بقي حفل التكريم ..

حفل التكريم ! .. ولكن ابتساماتي انتهت الليلة .. ولكنه سيصل إلى دمشق بعد قليل .. لم أعد أستطيع .. يجب أن أهرب .. ان أهرب ..

أصل إلى الفندق لاهثة .. أدخل الغرفة وأغلق الباب بالمفتاح . أريد أن أنفصل عن العالم . عن التصفيق . عن كل شيء ..

أنين الأمواج يلطم بعنف هوات أعماقي الدامية . لا فائدة من الانكار . النجوم تصطدم ساخرة من ابعادها المرسومة ، وعاصفة مبهمة تعول في الخواء .. وأنا أقف في الظلمة دون أن أجرؤ على اشعال النور ورؤية وجهي في المرآة .. أخاف من الوحشية المتمدنة في رسومه ..

شعاع قمر يرتعد خلال زجاج النافذة التي أرى انها تضيق .. تضيق .. ما كان في العالم قط نافذة اكثر ضيقاً ولا قمر أشد برداً من هذه النافذة وقمرها الهزيل ..

أسمع من بعيد اثنتي عشرة دقة جنائزية لساعة حديدية العقارب . أحس ان الدقات تنغرس في لحمي بوحشية كاوية . أقترب من النافذة لأغلق زجاجها . أراه هناك فوق الصخرة حيث جلسنا منذ عام .. يرتعد تحت لسعات القمر !!.

أغلق النافذة بحدة وأهوي إلى فراشي وأنا أنشج بلوعة دامية . فقد كنت أعلم تماماً ان في هذه الساعة بالذات تصل إلى مطار دمشق طائرة قادمة من بعيد بعيد .. تترنح في ظلمة المطار ثم يهبط منها كثير من الرجال بعضهم يتأبط ذراع حبيبته الدافىء .. حتى إذا ما ابتلعهم مطعم المطار ، صعد رجلان كئيبان تفوح منهما رائحة سجائر رديئة إلى الطائرة ، وهبطا بتابوت خشبي من جوفها .. تابوت يضم عيني شاعر ذهبتا تبحثان عن عقد من اللؤلؤ للحبيبة الطموح ، وعادتا وقد برد ليلها الزنجي ..

ولكنني لم أفتدهِ .. فات الاوان وجف البحر قبل أن افتديه .. لم أستطع حتّى استقبال جثمانه فقد عاد ليلة حفلتي الكبرى.. أغرس أسناني في الوسادة . الدموع تهوي في صمت عجيب وتغسل عشرات الاصبغة عن وجهي .. تسقط اهدابي الاصطناعية على الوسادة وأحسها تتلوى تحت خدي عناكب موحشة لزجة السيقان .

براري شقائق النعمان

السيارة الضخمة ما زالت تترنح في عتمة الدرب وكأنما أسكرتها زجاجات الخمر المكدسة في جوفها .. الضباط الثلاثة الجالسون في المقعد الأمامي ما زالوا يعربدون ، وكأننا لم نخلف في القرية وراءنا رماداً في البيادر ولهيباً في لحى الشيوخ ، وسهولاً دامية الحشائش كبراري شقائق النعمان .. انهم يرمون بين الفينة والفينة بزجاجة خمر فرغت لتوها .. فتتحطم معولة بين الصخور المدببة .. وأحس بأن حطامها يزحف على وجهي منشارياً ممزقاً كأسنان قائدنا .. وانا هنا في مؤخرة السيارة الشاحنة جلست أحرس رجلاً يعرف أسراراً تهمنا ، ويقول الجرح الدامي في كتفه انه لم يعد بحاجة إلى حراسة .

.. القمر الاصفر يزيح سحابة غزت عن وجهه ويطل منتحباً .. وأرى في شحوب أهدابه أخاديد الألم في ملامح ابن الاوراس الذي ظفرنا به .. أخاديد تزداد عمقاً كلما أسرع السائق الثمل وازدادت اسياخ الريح الجليدية التي تنغرس في جرحه حدة وهمجية .. وأنا أرقبه برعب خاشع ، أنفاسه المتسارعة تشدني من غيبوبتي إلى يقظة لاهثة ممزقة .. تدفعني إلى أن أتأمل وجهه الصارم ، ورقصة الثقة والهدوء في أغوار عينيه العميقتين ، ونظراته المحرقة التي كانت تستحيل دافئة حنوناً كلما سقطت على وجهي وتوحي لي بأن مظهري يثير الشفقة ، وانني أفعى فاشلة أضاعت نابها ..

وأظل أرقبه بينما تعاودني نوبة احساس مبهم بالذعر تشوبها ظلال اشمئزاز وامتعاض ، تمتزج هذه الانفعالات مع رائحة دم بشري حار تفوح من ثيابي .. واشعر بدوامات سود من أسى انساني جارف تضيق

حول عنقي . تضيق . تزداد ضيقاً كلما تسللت نظرات أسيري الجريح ، تمسح ذل آلامي بجبروت ألمها ..

لا أدري ماذا يضايقني وأنا أرى التجارة التي جئت من أجلها إلى هذه الأرض تثمر وتزدهر ، ماذا يضايقني أنا الذي تطوعت لاقتل ، وقد قتلت الليلة عشرة جزائريين ؟

أمد يدي إلى جيبي أتحسس عشرين أذناً بشرية باردة وأدمدم : بقي عشرون أذناً أخرى حتى أنال مئة ألف فرنك مع وسام الشرف الفرنسي ..

« تجارتك تزدهر .. ما الذي يضايقك أيها الأحمق » ؟

.. ها قد عدت للتحدث إلى نفسي . صوتي مرعب . يخيل إليّ انه ينبعث من كهوف سود مرصوفة بجماجم ذهبية .

أولئك الجزائريون ، لماذا يشتري الضابط ذو الاسنان المنشارية آذانهم ؟ قال لي ذات مرة انه يصدرها إلى فرنسا . تراهم يأكلونها هناك ؟ وهل جئنا لنوفر طعاماً لحسان السين ؟

حسان السين ..

بعد أن هربت من سهلي الجميل في ألمانيا ، وقبلت الانضمام إلى الفرقة الاجنبية في باريس . وكنّ براقات وكريهات الرائحة .. لم أجد واحدة فيهن كسوزي .. واذكر سوزي ... ولا أستطيع إلا أن أهذي باكياً مخاطباً أسيري بلوعة ممزقة : « سوزي كانت جميلة قبل أن أقتلها .. هل تسمعني أيها المتوحش ؟ » .

لماذا ؟ لماذا ينظر إليّ بهذه الشفقة المترفعة ، لماذا ينصت إلى نحيبي المحموم وكبرياء ألم نبيل يتلوى أخرس بين شفتيه ؟

لا أريد ظل رحمة في وجهه ... ألا يعلم أن أذنيه ستغيبان بعد لحظات في جيبي ؟ لماذا ينظر إليّ وكأنه يريد أن يهبني انسانيتي الضائعة .. كبرياء جرحه العملاق عبثاً تشدني من أوحالي .. ألا يعلم انني احلت الاقحوان في

خدي سوزي إلى براري شقائق نعمان دامية ؟ وانني في كل يوم أغرس خنجري في جسد ملتهب فأحيل خضرة حشائش أرضه إلى براري شقائق نعمان دامية ؟

ما زالت السيارة تقفز بين وهدات الدرب الليلكي ، وعلى رأس أسيري قبعة تكاد تطير دون أن تجد القوة على الامساك بها .

ويتحول احساسي المبهم بالذنب والأسى إلى حنان جارف . أتمنى أن أحمي جرحه وأمسك بقبعته .. أن أركع أمام صفاء عذابه المبدع وانشج وأحكي له كيف قتلت سوزي وكيف اقتلها كل يوم من جديد ...

أرتعد .. توقظني زجاجة خمر تهوي ، يخيل إليّ ان حشرجة سوزي تتناثر مع حطامها ..

سوزي ؟

كم كنت أحب تأرجح الشمس بين جديلتيها .. وترنح الشفق على حقول الاقحوان في خدها .. وأحب ذوب دفء الربيع في همساتها .. كانت هرة متوحشة رائعة .. تقدمت اليها وفي عيني موقد ودار وطفل لما يولد .. وقالت انها سترسم نيراناً في الموقد ، وترقص في حنايا الدار .. وانها ستكون لي أبداً .. وان مهرجان الشمس في جديلتيها كنزي وحدي .. وظللت أعبدها حتى أطل رجل يحمل قصراً ذهبياً على كفه ، وركع أمامها فابتسمت له ببساطة وحشية .. وقالت غربان القرية انها له .. وقالت انها ليست له .. وليلة ارتعد الموقد في عيني برداً ، وجن حنينه إلى الدفء الضائع ، غرست خنجري في الرقبة الدقيقة ، وتفجر سائل أحمر ، وولدت في خدها براري شقائق النعمان .. القطة المتوحشة الساكنة في رأسها الصغير كانت أبداً تموء بأسى جارف وأظافرها تمزق وجهي .. تمزق وجهي .. ظلت تمزق وجهي وأنا هارب عبر الحدود .. هارب إلى حيث أضواء باريس تقهقه ليلاً كغانية مخمورة لطختها الاصباغ .. وهناك غرقت في

أوحال السين حتى ثمالة مفجعة ..

وجاء ضابط ذو اسنان منشارية وقال لي : « أنت مجرم فار وسنعيدك إلى بلادك » .. أجابه فتى مشرق الجبين يعيش في أعماقي : « أنا أكره القيود .. سأفعل ما تشاء » قال له الضابط : « هنالك صحاري من تبر .. أذهب لصيد الارانب هناك .. اقتل ، ونحن نشتري موتاك لنتغذى بلحومها » ..

بكى الفتى مشرق الجبين في أعماقي نادباً : « أنا أكره رائحة الموتى ..

— الطيب يفوح من الجثث هناك .

— أنا أكره القتل ..

— اقتل باسم الحرية .. باسم مجد فرنسا .. باسم الشعب الفرنسي المسكين الذي يريدون طرده من أراضيهم ..

وجاء ضابط طويل ذو أنف معقوف وانتحب أمامي : « تصور هذه الحقارة .. كيف يطردوننا من أرضهم التي مضت علينا أعوام ونحن ننهبها .. ننهبها بلطف ورقة دون أن يشعروا . تصور..انهم وحوش،ولا يريدون أن يقاسمونا أرضهم .. ثم ان لحمهم طيب نحبه .. هل ترضى بأن نموت جوعاً ؟

— حسناً سأرحل إلى الصيد وآتيكم بالارانب .

ولكنني أكره القتل .

وتصرخ أصوات حادة تنطلق خلال أسنان منشارية : ولكنك قتلت سوزي .. قتلت سوزي .. قتلت .. قتلت ..

وهرب الفتى الطيب إلى كهوف جليدية في أعماقي ، وانهدمت حوله المنافذ بكتل ثلجية مروعة الهدير .. ومن يومها لم يعد ..

الذكرى تفجر لوعتي . لا أستطيع إلا أن أنتحب بشهاتة حمراء مروعة وأنا أهذي : الفتى الطيب لم يعد أيها الجزائري . من يومها لم يعد ..

وتلفني الدوامة من جديد .. وأكاد أهوي .. أتمسك بمقبض خنجري

الذي هرب منه فتاي الطيب ولم يعد .. أحس بملمسه البارد الحاد ينتشلني إلى ما يجب أن أكون .. إلى ما صممت على أن أكون .. عشرون أذناً في جيبي وسام الشرف الفرنسي أضحى قريباً . الشيطان الذي يرقص في عيني بدأ يشدني نحو الجالسين أمامي وقد أثخنته جراحه . بعد لحظات سيكون في جيبي اثنتان وعشرون أذناً ، وسيتأرجح وسام الشرف الفرنسي قرب صدري .

أقترب منه .. انه لن يقوى على المقاومة ، انه ممزق ومتعب . هؤلاء الجزائريون يدافعون عن آذانهم بهمجية . انهم كما قال الضابط لا يشعرون انهم وحوش فعلاً .

أقترب منه أكثر وخنجري يلتمع في شحوب البرد . إنه لا يتحرك . قبعته التي غاصت حتى كادت تمس رقبته تثير شهوتي لرائحة الدم .. إنه مخلوق مرعب الهدوء .. يذكرني بحكايا أمي عن الاشباح التي تنهض من قبورها للثأر وتنقض من كبد الصمت ونحن لا ندري .. لن أتهاوى أمام صمته الممزق ..

أنتزع قبعته فجأة عن رأسه فيختطفها نهم الرياح. أمد يدي لأقبض على أذنه بينما أرفع الأخرى لأهوي بالخنجر وأقطع الإذن ، والارنب مرعب الهدوء مدهش البلادة .. يدي تقبض على اللاشيء . على اللاشيء ! عرق محموم يكوي وجهي .. الحقيقة تفجر ذعري واشمئزازي .. انه بلا أذنين .. بلا أذنين.. وألف ألف شبح يشد نظراتي اليه..بلا أذنين..يجلس هادئاً بصلابة جرحه المدمر . انه يعريني من الشعارات التي دثروني بها في حانة السين .. وأنا الآن أقف عارياً بكل زيفي وحقارتي وضعفي .. أرتعد أمام جبروت جراحه ومجد آلامه .. أدرك ذلك كله بوضوح فاجر يفرض نفسه بقسوة ثعبان يقرض مقلتي .. وهو أمامي بنفسه الآمنة المطمئنة .. بجرحه الغني العاري .. ومكان أذنيه الضائعتين في جيب ما .. في وسام ما يوقظني من

هوات اثمي . ويضحك .. ويضحك ببساطـة وسخرية .. ويضحك بحقد وفخر .. ويضحك كما لم تعول عاصفة وكما لم يهمس جدول ، وتحملني ضحكته إلى غابات زنجية الاشجار أفترس طيورها .. أفترس أرانبها .. وأظل وحيداً في الغاب .. خائفاً ..

أنا خائف .. خائف كلحظة أحسست أنفاسه تلسع ظهري أثناء المطاردة .. كان يستطيع أن يغمد خنجره في ظهري لكنه لم يفعل .. لماذا لم يفعل ؟ لماذا لم يقتلني هذا الفتى الاحمق ؟ أعرف الجواب ، أعرف كل شيء هذه الليلة ، وهذا ما يكويني ..

أنوار القرية التي تخترقها السيارة الآن تنسكب على وجه أسيري .. وأحس أنني أحب جرحه الخلاق ، وأساه المتماسك وأحب صمت أرضه الهادر وقسوتها الحنون ..

تهوي دمعة هاربة من سحابة عذراء في أعماقي الشريرة .. فتذوب أكداس الثلوج .. تذوب .. الفتى مشرق الجبين في أعماقي ينهض ببساطة .. يكبر .. ويكبر ويمد جسده في جسدي .

تقف السيارة فجأة أمام المعسكر ويهبط الضباط الثلاثة متأرجحين كذنب كلب أجرب..يبصق الضابط ذو الاسنان المنشارية كلماته في وجهي.. أحضر أرنبنا الحقير إلى المرقص .

حقير .. ألا ترون صفاء غدير استوائي في عينيه ؟ نبع الحياة المجنون في كرامة نضاله ..

— لماذا لا تتحرك يا جبان ؟. هاته إلى المرقص .. المرقص ..

وتهتز أمام عيني صورة المكان الذي عناه الضابط ... ديدان وهوام ، وجدران طحلبية عفنة .. أسود برية شدت أطرافها إلى مقاعد حديدية ، وأوصلت بأسلاك مشحونة بالكهرباء تنتفض برعشات عذاب هائلة كلما ضغط ذو الاسنان المنشارية على أحد الازرار مهللاً ضاحكاً..فالتشنجات الهستيرية لا تثير فيه أكثر منذكرى اهتزازات زنود غانيات السين عفنة الصفرة .

أحد الضباط يصرخ ثملاً ضاحكاً : « نحن شربنا وأنت ثملت .. أسرع به إلى الداخل أيها الأحمق » ..

أقود الأسد ذاهلاً إلى حيث العذاب.. أتحاشى أن تتلامس نظراتنا .ثانية واحدة كافية ليحرقني ،ليسحقني بوجوده المدمر .. بكيانه المبهم المسيطر ..

— اقتلع أظافره يا جبان .. لعله يعترف قبل أن نقتله ..

يداه مقيدتان .. الملقط يرتعد في يدي .. لا أجرؤ على قص شاربي الاسد .. لا أستطيع .. لا أريد ..

لكنه صامت لا يتململ .. صامت كقمة جبل ..

الضابط ينعق في زاوية الكهف وأنا لا أسمع شيئاً .. الآذان الهامدة في إحدى جيوبي ثقيلة تشدني إلى الارض .. تنهش من كبدي وكأنما تحولت كل اذن إلى ذئب مجنون العواء .. تتعلق نظراتي بالديدان المتمرغة في صديد الغرفة .. وأراها تقرض سمعة فرنسا .. وأراها تلعق سمعة فرنسا .. وفي كل زاوية تلسع العقارب الاقدام العارية لجموع ركضت ذات يوم لتحطم الباستيل .. وأتماسك والآذان تشدني إلى الارض .. إلى حيث أغرق مع العفن طعاماً لهوام القبور .. براري شقائق النعمان تقهقه في الخواء مع عويل الرياح .. تقهقه ساخرة .. الجماجم الذهبية تتناثر حولي .. السقف الاسود يقترب مني .. القطة الوحشية الساكنة في رأس سوزي تموء مجنونة .. السقف الاسود يقترب .. الجريح يتململ على مقعده .. انهم يعذبونه وأنا لا أرى شيئاً .. لا أريد أن أرى .. ولكنني لا أستطيع إلا أن أسمع كلمات وخازة تنطلق من بين أسنان منشارية مخمورة : « أيها الجبان .. أقتله أو نقتلك .. خذ المسدس .. اقتله لأجل شرف فرنسا ... اقتله » .. المستنقع ينسكب من فمه ..

نظراتي تتلوى على وجه الجريح الحنون ، وبالرغم من عذابه أرى شبح ابتسامته يلثم وحدتي ، يقول انني لم أعد جباناً ..

— اقتله يا جبان ..

لم أعد جباناً .. هذا ما تقوله عيناك أيها الجريح .. كم أتمنى أن أقف وإياك في ليلة صفت سماؤها ، وتلألأت نجوم غسلتها عاصفة محتضر .. نقف بين أكوام الرماد الذي تذروه الرياح .. تظل تذروه حتى تكشف عن برار قديمة الخضرة يضحك فيها أطفال في أقدامهم أحذية .

وأحدثك هناك وأنا أبكي ضياعي .. وأحدثك وانا أضحك فرحاً لأن لك أذنين .. وأطير ببساطة إلى كوخي الضائع قرب جديلتين تتأرجح الشمس بينهما ..

الضابط يصرخ بي والنار تندفع من مسدسه :

— مت أيها الجبان .

ملتهبة هي الافعى التي انقضت على صدري أيها الاخ الجريح .. الدوي الهائل يدفعني إلى الارض ، أهوي ، والديدان والهوام تهرب .. تبتعد عني .. نظراتي متخاذلة لا تقوى على التسلل إلى وجهك أيها الانسان .. ألا تقترب ؟ أريد أن أعرف ماذا في عينيك أيها الانسان العجيب ..

الفتى مشرق الوجه الكامن في أعماقي ينطلق مع حشرجتي يقترب من وجهك باصرار معذب .. يلتصق بمقلتيك متشبثاً متأملاً .. يرى فيها بوضوح ظل احترام ورضى ويرى أنهما تهتفان .. أيها الشجاع ، لم يكن بحاجة إلى أكثر من ذلك أيها الصديق الجزائري ..

وأرى الفتى مشرق الجبين يغيب .. يغيب عن أشلائي سحابة وردية في سماء براري شقائق النعمان بصدرها جوع نهم إلى أن تنعقد مطراً يوماً ما تغسل قطراته الاعشاب الدامية بحنو وندم ..

ويهوي القبو في دوامة خرساء الهدير عديمة الالوان وتظل الديدان تتغذى بالصديد وبسمعة فرنسا .

فهرست



انهمر سيل الحرف من بين أنامل غادتنا ، فاذا نحن على موعد مع أكرم بيدر . اني ارشح هذه الكاتبة للمجد .

نزار قباني

لا أستطيع إلا أن أتوقع من هذه الكاتبة غزوات ضخمة في دنيا الأدب .

موسى صبري

إن غادة تعاني وتعي ما تعانيه . وتحاول أن تؤجج لنا لوحات عنيفة عن انبثاقة الكائن الإنساني في الأنثى العربية

مطاع صفدي

هنا قلم رهيف . ونفس تستطيع أن تستخدم كل لون في الصورة التي تلائمها ، وشاعرية خصبة طالما افتقرت إليها قصتنا .

خليل هنداوي

36

